الباب الثالث عشر

الوصف

أ- الوصف والنعت من اللغة إلى النقد

في الجزء الأوَّل من هذه السلسلة - عنوانه الأدبُ الجاهليّ[1]- كنا قد استفتَينا أهلَ اللغة والنقد في معنى الوصف لغةً واصطلاحاً. فأفتى أهلُ اللغة بأن الوصف هو الكشفُ والإظهار. وأفتى أهلُ النقد -والقولُ لقدامة بن جعفر- بأنه «ذكرُ الشيء بما هو فيه من الأحوال والهيئات»، ما حَسُنَ منها وما قبح. وماز الخليل بن أحمد النعت من الوصف، فقصر النعت على ذكر المحاسن، وعمّم الوصف على المناقب والمثالب.

ثم خطر لنا في الجزء الرابع من هذه السلسلة- وعنوانه النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة[2]- أن ننتجع مراتع ممرعة أخرى، فقبسنا من إمام النحو الكوفي ثعلب قوله: «النعتُ ما كان خاصّاً بمحل من الجسد، كالأعرج مثلاً. والصفة للعموم كالعظيم والكريم، فالله يوصف ولا ينعت». كأن ثعلباً الكوفي أبى إلّا أن يخالفَ الخليلَ البصريَّ في اللغة، كما خالفه في النحو.

وقبسنا من ابن الأثير كلاماً يعارض كلام ثعلب، إذْ ذهب إلى أن النعت إذا أُطلق انصرف معناه إلى المحامد خاصَّة، فإذا أريد منه أن يدلَّ على قبيح قُيِّد،

---

(١) ص/ ٧٥ وما بعد.

(٢) ص/ ٦٠١ وما بعد.

كأن يقال ذمَّه فنعته بالجبن. قال ابن الأثير: «النَّعتُ وصف الشيء بما فيه من حسن، ولا يقال في القبح إلا أن يتكلف متكلِّف، فيقول: نعت بسوء. والوصف يقال في الحسن والقبح». فابنُ الأثير يظاهر الخليل على ثعلب.

ولَمَّا كنا أعجزَ من أن نرجح عَلَماً على علم من كبار اللغويين والنقاد فقد آثرنا قبول الرأيين، فقلنا: الوصف والنعت مترادفان، وهما في الشرف سيّان، فتخيَّرْ من اللفظين أيَّهما شئت. ولَمَّا كان لفظ الوصف أشهر وأشيع وأجرى على الألسنة من النعت، فليكنْ كذلك أوْلى بالاستعمال في دراسة الأدب، وليَجْرِ به قلمُك، وأنت مطمئنٌّ، وخاصَّة في دراسة الشخصيات البارزة في عصر النبوَّة والخلافة الراشدة، ثمَّ في العصر الأموي، غير متحرِّجٍ من تحذير ثعلب وتقييده، وغير قاصر أحدهما على حسن أو قبح، فكلاهما يستعملان للنقيضين كليهما.

ب- الوصف عند الأصوليين والمتكلِّمين والفلاسفة

وفي هذا الجزء رأينا أن نرِدَ مواردَ الفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة، لعلَّنا نفيدُ من علمهم ما نجهل، أو نضيفُ لاحقاً إلى سابق، فوجدنا الأصوليِّين يقولون في تعريف الوصف[١]: «هو الأمرُ الذي إذا قام بالمحلّ يوجبُ في ذلك المحل حسناً أو قبحاً». وكلامُهم بكلام الخليل وابن الأثير أَشْبَهُ.

وقال علماءُ الكلام[٢]: «هو أن يختصَّ شيءٌ بآخرَ اختصاصاً، يصيرُ به ذلك الشيءُ نعتاً للآخر، والآخر منعوتاً به، ويُسمَّى الأوَّلُ حالاً، والثاني محلّاً، كاختصاص السواد بالجسم، لا كاختصاص الماء بالكوز». وقال الجرجانيُّ[٣]: «المتكلِّمون فرَّقوا بين الوصف والصفة، فقالوا: «الوصفُ يقوم بالواصف والصفةُ تقومُ بالموصوف». ومعنى كلامه أنَّك إذا قلت: عمرُ بن عبد العزيز عادلٌ، فكلمةُ «عادل» قائمةٌ بك، لأنَّها صدرت عنك. وأمَّا الصفةُ - وهي العدلُ- فقائمة بعمر، لأنها من سماته لا من سماتك.

وميَّز الفلاسفة الوصفَ الذي يقرِّر حالةً واقعة، فسمَّوْه وصف تقرير لما هو

(١) كشاف اصطلاحات الفنون/ ١٧٨٧.
(٢) المصدر السابق/ ١٧٨٧.
(٣) التعريفات/ ٣٠٨.

واقع، من الوصف الذي يرمي إلى تصوير قيمة مَرْجُوَّة، وسمَّوه وصفَ قِيَمٍ أو أحكام. قال د. جميل صليبا[١]: «قد يكون الوصف نعتاً للشيء كما هو عليه في الواقع، أو تعبيراً عمَّا يجب أن يكون عليه الشيءُ بالنسبة إلى مثاله المتصوَّرِ في الذهن. فالوصفُ بالمعنى الأول مؤلَّفٌ من أحكام تقريرية وجودية، على حين أنه بالمعنى الثاني مؤلف من أحكام قيم، أو أحكام تقدير».

وإذا كان النحاةُ قد أشاروا إلى التغيُّر في الحال، وإلى الثبوت في الصفة، فإنَّ ابن سينا -وهو من كبار الفلاسفة- ذهبَ المذهبَ نفسه، فرأى أن الصفات لثبوتها هي التي تُعطي الموصوف شخصيَّته أو هويته، فقال[٢]: «إن الشيءَ الواحد قد تكون له أوصاف كثيرة، كلُّها ذاتية، ولكنه إنما هو ما هو لا بواحدٍ منها، بل بجملتها».

وزبدةُ القول أن أهل الفقه والكلام والفلسفة أضافوا إلى ما انطوى عليه كلام اللغويين والنقاد وأهل البلاغة فروقاً أخرى، لا يعنينا منها إلَّا فرق واحد، وهو تمييزُ الوصف من الصفة، وما نجم عنه من اختلاف خطير بدأت مخايله تظهر على ضعف نهايةَ العصر الأموي، ثم قويت في عصر المأمون.

لقد نجم عن هذا التمييز اختلافٌ في صفاتِ الله، فإن قلت: إن صفاته- ومنها الكلامُ- حلَّت في ذاته، ولم تكن حالَّةً فيها، فالقرآنُ مخلوقٌ. وهذا القولُ قولُ المعتزلة، وإن قلت: إن صفاته كانت في ذاته من الأزل، وتبقى فيها إلى الأبد، فالقرآن أزليٌّ أبديٌّ، لا مخلوق. وهذا القول قولُ الأشاعرة وأهلِ السنة. وقد تشبَّثَ أهلُ السنة- وعلى رأسهم أحمدُ بن حنبل-برأيهم لكي ينفوا عن صفات الله عامَّة، وعن كلامه خاصة أدنى شبهة من شبهات الحدوث، لكيلا يقال: إن القرآن مخلوق.

قد تقول- وقولُك حقّ-: فيم الحديثُ عن آراء المناطقة والفلاسفة في الوصف؟ والوصفُ غرضٌ فنيٌّ خالص، جوهرُه تصويرُ المحاسن والمقابح بغيةَ الإمتاعِ بالإبداع، لا الخوضُ فيما قال جهم بن صفوان، وواصل بن عطاء ومن جاءَ بعدهما من أهل الفرق؟

---

(١) المعجم الفلسفي٢/ ٥٧٤.

(٢) نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم/ ٣٠ وما بعد.

وجوابُنا عمَّا قلت أنه قد يُصادفُنا في بعض النصوص، وخاصَّةً فيما قيل منها في وصف الشخوص، أو تحليل النفوس عباراتٌ متَّصلة بعضَ الاتّصال بهذه الدلالات، فلا يشقُّ علينا فهمُها، وردُّها إلى المصادر التي صدرت عنها.

جـ- ما وُصِفَ بالنثر في العصر الأمويّ

لا يُماري أحدٌ في أن الشعر عامَّةً، لا الشعر الأموي خاصَّة، أقدرُ من النثر على الوصف. وأن ذا الرمة وحده بَلَغَ بفنّ التصوير غايةً لم يدركها لِداتُه من أهل النثر مجتمعين. وعلَّةُ ذلك عندنا أن حظَّ الشعراء من الخيال المبدع فوق حظوظ الكتاب والخطباء، فإذا وصفوا لم يكتفوا برسم ما ألفوا، فربّما صوروا ما أبصروا وما تصوَّروا. وتصوُّرهم أوسعُ أفقاً من تصوُّر أندادهم من أرباب المنثور.

إن سعة الأفق تتيحُ للشعراء أن يرقوا بالمنظور إلى المتصوَّر، وبالواقعي إلى الخياليّ، حينئذٍ تجود عليهم مواهبُهم بأضعاف ما يجودُ به العقل على أهل النثر. ومع ذلك فإن كتب الأدب والتاريخ حفلت بموصوفات كثيرة، يشقُّ علينا استقصاؤُها وإحصاؤها. لا لوفرتها فحسبُ، بل لوفرتها وتناثرها بين الأغراض الفكرية المختلفة، ولكونها وسيلةً لا غاية، أي لجعلها خادمة للفكرة، توضِّحُ منها ما دقَّ، وتجسِّم ما تجرَّد.

أشيع الموصوفات في النثر الأموي الطبيعةُ جامدها والمتحرك، نباتُها والحيوان، صامتُها والناطق، إذْ وصف الوصَّافون النجوم والغيوم، والزرع والضرع، والخصب والجدب، والأوالف والضواري، والبادية والحاضرة. وسحرتهم الحضارة بزخارفها، فصوروا المدن ومتارفها، ومجالس الغناء والمعازف، والمطاعم والمشارب.

وربما كان البشر أبرز موصوفاتهم، لأنهم عايشوا أمماً لم يعرفوها، وسمعوا لغات لم يألفوها، وفشت بينهم الإماء والقيان، واختلط بهم أهل المدن والأرياف، ومع هذا الاختلاط فقد حرصوا على أن يوفوا عظماء العرب حقهم من التصوير والتحليل، فوصفوا أعلام الصحابة والتابعين، وكبار الخلفاء والأمراء، وكأنما هدفوا بما وصفوا إلى أن يجعلوا الصفوة أسوة، يتأسى بها الناشئة لئلا يفسدهم العيش بين أوشاب البشر.

١- السحاب والمطر

لا يبالغُ مَنْ يزعمُ أن الإنسان العربيَّ طَوَالَ تاريخه المديد ظلَّ يُحسُّ الظمأَ إحساساً أزلياً، وسيظلُّ -كما يخيَّلُ إلينا- يحسُّه إحساساً أبديّاً. فهو لا يُخيفه شيء كما يُخيفه أن يرى سماءَه بلا سحاب، وأرضه بلا ماء. لقد ظلَّ هذا الإحساس الممضُّ يُؤرِّقه ويحرقه حتى بعد أن هاجر من رمضاء الدهناء، وبارح أوشالَ نجد، إلى غوطة دمشق وسواد العراق، فارتوى من بردى والفراتين ما شاءَ الله أن يرتوي. لكنه بقي إذا نأى عن الأنهار والآبار، أو فارق شطآن الغدران أرمضه العطش، فصلَّى صلاةَ الاستسقاء بآيات من سورة نوح، أو أنشد أبياتاً من «أنشودة المطر» بلسان بدر شاكر السياب.

وأدلّ ما يدلُّك على ضراوة الإحساس بالظمأ أن أمير العراقين المتقلِّب بين دجلة والفرات إذا زاره أعرابيٌّ جاز الصحراءَ إلى السواد بادره بالسؤال عن السحاب والمطر، قبل أن يسأله عن أحداث السياسة، وأحوال الإدارة، وأخبار الأهل والأصحاب. قال ابن عساكر[١]:

«دخل سيابةُ بن عاصم من بني سليم على الحجَّاج.

فقال له الحجَّاج: هل كان وراءك غيث؟

قال: نعم، أصابني فيما بيني وبين أمير المؤمنين ثلاثُ سحائب.

قال: فانعتْ لي كيف كان وقع القطر؟ وكيفَ كان أثرُه وتباشيره[٢]؟» مضى الأعرابي يصف ثلاث السحائب وصفَ المحبور بالنعمة الشكور للمنعم. فقال: السحابةُ الأولى هطل عليَّ مطرُها، وأنا في حَوْران، فإذا هو ضربان: قطْر نزر ذو وَدْق غير وفر، وغيثٌ سخيّ، رويّ عتيّ. والثانية جادتني في (سُواء) من بادية السماوة، بمطر جرد التراب عن الهضاب، وألقاه طيناً دمثاً في الأوداء. والثالثة أصابتني في «القريتين» بين مكة والبصرة، فكانت أغزر من أختيها ماء، وأسخى عطاء، إذْ ملأت السهوبَ والأودية، وأنبتت العشب، وشقَّقتْ أديمَ الأرض عن أفلاذ الكمأة، واقتحمت على الضّباع كهوفها، فخرجت منقادة للسيل الجارف.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٢٤٣.

(٢) أوائله.

وقال الجاحظ: «قال رجل من بني سليم - وسأله الحجاج عن المطر[١] -: «أصابتنا سحائبُ ثلاث: سحابةٌ بحوران بقطر صغار وقطر كبار، فكان الصغار للكبار لحمة، ووقع بسيط متدارك وهو السحُّ الذي سمعت به؛ فوادٍ سائلٌ، ووادٍ بارحٌ[٢]، وأرضٌ مُقبلة، وأرض مُدبرة. ثم أصابتنا الثانية بسُواء[٣]، فلبَّدت[٤] الدِّماثَ[٥]، ودحضت[٦] العَزَازَ[٧]، وصَدَعتْ عن الكمأة أماكنها. ثم أصابتنا الثالثة بالقريتين، فملأت الإخاذ[٨]، وأفعمت[٩] كلَّ واد، وأقبلنا في ماء، يجرُّ الضبع[١٠]، ويستخرجها من وجارها».

ويبدو أن الأعراب كانوا قد وقفوا على دخائل الأمراء والخلفاء. فلَمَّا عرفوا أنهم يعشقون الوصف الصادق، واللغة الجزلة، والفصاحة الأصيلة، والصور البدوية راحوا يحبِّرون الوصف، ويتَّجرون بما يحبّرون. قال ابن عبد ربه[١١]:

«دخل أعرابيٌّ على سليمانَ بن عبد الملك، فقال له: أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابيُّ؟

قال: نعمْ، يا أمير المؤمنين. غير أنها سَحاءُ[١٢] طخياءُ[١٣] وطفاء[١٤]، كأنَّ هواديَها[١٥] الدِّلاءُ، مرجحنَّةٌ[١٦] النواحي، موصولةٌ بالآكام، تمسُّ هامَ الرجال،

---

(١) النّص مُلفَّق مما ورد في البيان والتبيين ٢/ ١٦٤، ومختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٢٤٣.
(٢) أرض براح: واسعة لا نبات فيها ولا عمران.
(٣) ماء ناحية السماوة.
(٤) جعلتها قوية لا تسوخ فيها الأرجل.
(٥) الأرضون السهلة.
(٦) جعلت العزاز مزلقة.
(٧) ماغلظ من الأرض.
(٨) ما حفرته كهيئة الحوض.
(٩) ملأته حتى أعلاه.
(١٠) يريد: السيل قد خرق الأرض فكأن الضبع قد جُرّت فيه.
(١١) العقد الفريد٣/ ٤٦٤.
(١٢) دائمة الصب للمطر.
(١٣) مظلمة.
(١٤) مسترخية الجوانب من كثرة الماء.
(١٥) أوائلها.
(١٦) ثقيلة.

كثيرٌ زَجَلُها[١] وقاصفٌ رعدُها، خاطفٌ برقها، حثيثٌ[٢] وَدْقُها[٣]، بطيءٌ سيْرُها، متفجِّرٌ قَطْرُها. قد ألجأتِ الوَحْشَ إلى أوطانِها، تبحثُ عن أصولها بأظلافها، متجمِّعةً بعد شتاتها. فلولا اعتصامُنا، يا أميرَ المؤمنين، بعِضاهِ الشَّجر، وتعلُّقُنا بقُنن الجِبال لكنَّا جُفاءً[٤] في بعضِ الأوديةِ ولَقَم الطريق[٥]».

ويبدو أن سليمان- وذوقه أرهفُ من ذوقنا- أحسَّ أنَّ البدويَّ تعمَّد الدخولَ عليه، قبل أن تجفّ بِلَّتُه، لكي يسأله عن المطر، وأنه لم يرتجلْ ما قال، بل أعدَّه وجوَّده ليفوزَ بالإعجاب والجائزة. فقال له:

«لعمرُ أبيك، لئن كانت بديهة لقد أحسنت، وإن كانت محبَّرةً فقد أجدت.

قال: بل محبَّرةٌ[٦] مزوَّرةٌ[٧]، يا أمير المؤمنين.

قال: يا غلامُ، أَعْطِه، فوالله لَصدْقُه أعجبُ إلينا من وَصْفِه».

٢- الجَدْبُ والخَصْبُ

لم ترتبطْ أرضٌ بسمائها كما ارتبطتْ أرضُ نجد والحجاز، ولم تتعلَّق جفونُ عيونٍ بذيول غيوم كما تعلَّقت جفون الأعراب بأهداب السحاب، إنْ أمطرتهم الأنواءُ أمرعوا ورتعوا، وإن حبستْ ماءها عطشوا وجاعوا. وهذا الارتباطُ الواقعيُّ جعل أدبَهم منظومَه والمنثور يصوِّر تطلُّعهم الدائمَ إلى كلِّ أفق، لمراقبة كلِّ بارقة، ورصد كلِّ ريح، ليعلموا أتحملُ إليهم نسغَ الحياة، أم تلفحهم بسموم العطش والموت؟

وفد رجل من أسد على الحجاج، فلم يسأله عن الجدب والخصب، والجوع والشبع، وإنما سأله عن المطر، لأن فيه جواب كل سؤال[٨] «قال: هل كان وراءَك من غيث؟

قال: لا، كثر الإعصارُ، واغبرت البلاد، وأُكِلَ ما أشرف من الجَنْبة[٩]، فاستيقنَّا أنه عام سنة». ومن معاني السنة: القحط والجدب.

---

(١) جلبتها.
(٢) سريع.
(٣) مطرها.
(٤) ما يقذفه السيل من الزبد والوسخ.
(٥) وسطه ومنفرجه.
(٦) محسنة مجوّدة.
(٧) التهيئة والتزيين والإصلاح.
(٨) مختصر تاريخ دمشق ١٠/٢٤٣.
(٩) الجلدة من جنب البعير.

ووفدت الشاعرةُ ليلى الأخيلية على الحجَّاج بعد سنة شديدة المَحْل، فسألها عمَّا حملها على الارتحال عن قومها إليه. فراحت تصفُ ما وراءها من رمال قاحلة، وإبل عجاف، وفقر مُهْلك، ورجال يخترمهم الهزال، وأطفال يقتلُهم الجوع. قال أبو علي القالي[١]: «دخلت ليلى الأخيليةُ على الحجاج، فسألها: ما أتى بك؟

فقالت إخلافُ النُّجوم[٢]، وقلَّةُ الغيوم، وكلَبُ[٣] البرد، وشدّةُ الجهد، وكنتَ لنا بعد الله الرِّفد[٤].

فقال لها: صِفي لنا الفِجاج[٥].

فقالت: الفِجاجُ مغبرَّة، والأرض مقشعرَّة[٦]، والمَبْرَكُ معتلٌّ[٧]، وذو العيال مختلٌّ[٨]، والهالك للقُلِّ[٩]. والناسُ مُسْنِتون[١٠]، رحمةَ الله يرجون، وأصابتنا سنونَ[١١] مُجْحِفة[١٢] مُبلطة[١٣]، لم تَدعْ لنا هُبَعاً[١٤] ولا رُبعاً[١٥]، ولا عافطةً[١٦] ولا نافطة[١٧]. أذهبت الأموالَ، ومزَّقت الرجالَ، وأهلكت العيال».

ويبدو ممَّا وقفْنا عليه من وصف الأَرضين أن اليمامة، لقربها من البصرة، كانت أخصبَ أرضاً، وأسخى سماءً من نجد والحجاز، فكثر ماؤها، وزكا نباتُها، ورتعتْ أنعامُها حتى أبشمها الرتع، وشبع أهلُها حتى كظَّهم الطعام، ووصف رسولهم وفرة النعم، فقال للحجاج[١٨]:

«سمعتُ الروَّاد يدعون إلى ريادتها. وسمعت قائلاً يقول: هلمَّ أظعنْكم إلى محلَّة، تُطْفَأُ فيها النيران، وتَشَكَّى فيها النساءُ، وتنافس فيها المعزى.

---

(١) أمالي القالي ١/ ٨٦.
(٢) انقطاع المطر.
(٣) اشتداده.
(٤) المعونة والعطية.
(٥) ج فج: الأرض بين مرتفعين.
(٦) منقضبة متجمعة من الجفاف.
(٧) أرادت الإبل فذكرت مكان مناخها.
(٨) محتاج.
(٩) من أجل القلة.
(١٠) مقحطون.
(١١) ج. سنة: القحط والجدب.
(١٢) قاشرة لوجه الأرض ذاهبة بالنبت.
(١٣) ملزقة بالأرض الملساء.
(١٤) ما ولد في الصيف.
(١٥) ما ولد في الربيع.
(١٦) الضأن.
(١٧) العنز.
(١٨) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٢٤٤، وقد وفد عليه جماعة من أهل الشام.

فلم يدر الحجاج ما قال، فقال له: وَيْحَكَ، إنما تحدِّثُ أهلَ الشام، فأفهِمهم.

قال: أصلح الله الأميرَ، أخصبت الناسُ، فكان التمرُ والسمن والزبد واللبن، فلا توقد نارٌ يختبز بها. وأمَّا تشكِّي النساء، فإن المرأة تظلُّ تربقُ[١] بهمها، وتمخضُ لبنها، فتبيتُ ولها أنين من عضديها، كأنهما ليسا منها. وأمَّا تتنافس المِعزى، فإنها ترعى من أنواع الشجر، وألوان الثمر، ونَوْر النبات ما يُشبع بطونَها، ولا يُشبع عيونَها، فتبيتُ وقد امتلأت أكراشها. لها من الكظَّة جِرَّة[٢]، فتبقي الجِرَّةُ، حتى تستنزلَ بها الدرَّة».

وربما كان الحجاج -وهو من أرباب البيان- أكلف الأمراءِ بالفصحاء، وأحرصهم على أن يترشف أوصاف الخصب، كما كان أحرصهم على أن يسمع أوصاف الجدب. لقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بفقرات صوّرت مشاهد عريضة كالفقرة السابقة، وشذرات رسمت ملامح سريعة للزرع والضرع، والشجر والثمر كالشذرات التي رصعت بها المحاورة التالية[٣]: «خرج الحجَّاج إلى القاوسان، فإذا هو بأعرابي في زرع.

فقال له: ممَّنْ أنت؟

فقال: من أهل عُمان.

قال: فمن أيّ القبائل؟

قال: من الأزد.

قال: كيف علمُك بالزرع؟

قال: إني لأعلمُ من ذلك علماً.

قال: فأيُّ الزرع خيرٌ؟

قال: ما غلظ قصبُه، واعتمَّ نبتُه، وعظمتْ حبَّته، وطالتْ سنبلتُه.

قال: فأيُّ العنب خير؟

قال: ما غلظ عمودُه، واخضرَّ عودُه، وعظم عنقودُه.

---

(١) تشدها في الربقة وهي عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها.

(٢) ما يخرجه البعير للاجترار.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١٤٦، وفي مختصر تاريخ دمشق ٢٧/ ١٦٩ باختلاف.

قال: فما خيرُ التمر؟

قال: ما غلظَ لحاه، ودقَّ نواه، ورقّ سَحاه[١]».

٣- الحيوان

ذكرنا غيرَ مرَّةٍ أن النثر قصَّر عن الشعر في الوصف، وعلَّلْنا تقصيره بطابعه العقليّ، وزعمنا أن ذلك يعود إلى طُغيان ما فيه من منطق على ما يلزم الوصف من خيال. ونذكر الآن أن عالم الحيوان لم يظفرْ من النثر في العصر الأموي إلَّا بصور هزيلة الخطوط، ناصلةِ الألوان لا تمتع القارئَ إلا بقدر.

وأدلُّ ما يدلُّك على أن ادعاءنا يقارب الصواب أن صاحب الصناعتين يعرض عليك الصورة في جملة من النثر، ثم يعرضُها منظومة في بيت، فتُعلي المنظوم على المنثور. روى أبو هلال العسكري أنه «قيل لامرأة: صفي لنا الناقة النجيبة، فقالت: عُقابٌ إذا هَوتْ، وحيَّةٌ إذا التوتْ، تطوي الفلاة، وما انطوت».

وروى «أن ابن القِرِّيَّة كتب عن الحجاج إلى عبد الملك: بعثتُ بفرس حسن المنظر، محمودِ المخبر، جيّد القدِّ، أسيلِ الخدِّ، يسبقُ الطَّرْفَ، ويستغرقُ الوصف»[٢].

ومن هذا الضرب صورة رسمَها مسلمةُ بن عبد الملك- وهو من فرسان العصر الأموي- يصف بها بغلته فيقول[٣]: «ما ركب الناسُ مثل بغلة طويلةِ العنان، قصيرة العِذار، سَفْواءِ العرف[٤]، حصاءِ الذنب، سوطُها عنانها، وهمُّها أمامها».

وتأخُّر المنثور عن المنظوم في وصف الطبيعة عامَّة، والحيوان خاصَّة، لا يعني بالضرورة قلة ما وصف بالنثر، وكثرة ما وصف بالشعر. فأنت تجد مئات الفقرات النثرية تملأ البيان والتبيين، والعقد الفريد، وكامل المبرّد، وأمالي القالي، لكن ما نسب منها إلى العصر الأموي، أو إلى أحد البلغاء فيه أقلُّ من القليل. وفي إغفال النسبة حرمان للعصر من تراثه، وغمط لأعلامه.

---

(١) قشره.

(٢) الصناعتين/ ٩٦.

(٣) العقد الفريد٦/ ٢٢٩.

(٤) خفيفة شعر العنق.

وليس من المستبعد أن يكون الأعراب قد وصفوا ما أبصروا، وأن الرواةَ- وأكثرهم من عشاق الغريب- قد اصطفَوْا وتخيَّروا، فآثروا ما وُصف بغريب اللغة على ما وُصِف بمأنوسها. وهذا الإيثارُ فوَّت علينا الوقوفَ على كلِّ موصوف، وحَرَمنا التمتُّع بنفائس مغفلة.

وممَّا يشفع لما زَعَمْنا أنك تجدُ بين المؤلِّفين الأعلام، مَنْ يروي النصَّ، وغرضُه من الرواية أن يفسِّر غريبه تفسيراً مطوَّلاً مفصلاً، فتشغلُك مفرداتُه عن تراكيبه، واشتقاق المفردات عن جمال الصور. ومن هذا الضرب نصٌّ رواه أبو علي القالي، فقال[١]:

«عن أبي عمرو بن العلاء، قال: رأيتُ باليمن غلاماً من جَرْم، يَنْشدُ عنزاً، فقلتُ: صفْها يا غلام.

قال: حَسْراءُ مُقبلة[٢]، شعراء مُدْبرة[٣]، ما بين غُثرة[٤] الدُّهسة[٥]، وقُنوء[٦] الدُّبْسة[٧]، سَجْحاءُ الخدّين[٨]، خَطْلاءُ الأذنين[٩]، فَشْقاءُ[١٠] الصُّورين[١١]، كأنَّ زَنَمتَيها[١٢] تَتْوا[١٣] قُلَنْسِيَة. يا لها أمَّ عيال، وثمال[١٤]مال!».

فالنصّ كلّه سطران أو ثلاثة، أما السطور التي وسعت تفسير الغريب فعدَّتُها ستون سطراً.

---

(١) أمالي القالي١/ ٣٤.
(٢) قليلة شعر مقدم الرأس. قد انحسر شعرها.
(٣) كثيرة شعر المؤخر.
(٤) غُبرة كدرة.
(٥) من الرمل كل لين ليس بتراب أو طين.
(٦) حمرة.
(٧) الحمرة التي يعلوها سواد.
(٨) سهلتهما حسنتهما.
(٩) طويلة الأذنين مضطربتهما.
(١٠) منتشرة متباعدة.
(١١) القرنان.
(١٢) القطعتان المتدليتان ما بين لحيي العنز.
(١٣) ذؤابتا القلنسوة.
(١٤) أصل.

ولم يكن الكَلَفُ بالغريب قاصراً على الرُّواة وعلماء اللغة، بل فشت فاشيتُه في قصور الأمويين، وانعقدت قلوبُهم على محبَّته. فلَمَّا عرف الشعراءُ والبلغاءُ والأعراب الفصحاءُ نزوعَ الحكام إليه، أخذوا يتَّجرون به، وراحَ الخلفاءُ والولاة يحرِّضون العرب الأقحاحِ على تجويد الوصف، حتى إن بعضَهم كان يطرحُ على جلسائه موصوفاً، ويكلِّفهم أن يتنافسوا في وصفه لكي يجمع المعرفة إلى المتعة، ويقرن الفائدة بالجمال، فيصيبَ عقلُه من غرائب المفردات، كما تتمتعُ ذائقته بنفائس الصور.

«اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زُبَيْد الطائيّ، وجميلُ بن مَعْمَر العذريّ، والأخطلُ التغلبيّ. فقال لهم: أيُّكم يصفُ الأسد في غير شعر؟

فقال أبو زبيد: أنا يا أمير المؤمنين. لونُه وَرْد[١]، وزئيره رعد، ووثبه شدٌّ[٢]، وأخذه جدّ. وهَوْله شديدٌ، وشرُّه عتيد، ونابه حديد[٣]. وأنفُه أخشم[٤]، وخدُّه أدرم[٥]، ومشفره أدْلم[٦]. وكفَّاه عُراضتان[٧]، ووجنتاه ناتئتان، وعيناه وقَّادتان، كأنهما لمحٌ بارق، أو نجمٌ طارق....

وقال جميل: وجهُه فَدْغَم[٨]، وشدقه شدقم[٩]، ولَعْزُه مُعْرَنْزِم، مُقدَّمُه كثيف، ومُؤَخَّرهُ لطيف، ووثبه خفيف، وأخذُه عنيف، عَبْلُ الذراع، شديد النخاع، مُردٍ للسباع....

وقال الأخطل: ضَيْغَمٌ[١٠] ضرغام[١١]، غَشَمْشَمٌ[١٢] هَمْهَام، على الأهوال مِقدام، وللأقران هضَّام[١٣]. رِئبالٌ[١٤] عَنْبَس[١٥]، جريءٌ دَلَهْمَس[١٦]، ذو صدر مُفَرْدَس[١٧]، ظلوم أهَوْسَ[١٨]، ليث كَرَوَّس[١٩]....

---

(١) أحمر يضرب إلى صفرة.
(٢) قيد ووثاق.
(٣) مشحوذ.
(٤) عريض.
(٥) مستوٍ.
(٦) أسود أو شديد السواد.
(٧) واسعتان.
(٨) جسيم.
(٩) واسع.
(١٠) الأسد، الذي يعضّ، الواسع الشدق.
(١١) الضاري الشديد.
(١٢) الجريء.
(١٣) كسّار، ظلّام.
(١٤) من أسماء الأسد.
(١٥) عبوس كالح الوجه.
(١٦) من أسماء الأسد لقوته وجراءته.
(١٧) عريض.
(١٨) شديد الفتك.
(١٩) شديد، عظيم الرأس، ضخم.

قال يزيد: حسبُكم، وأمر لهم بجوائز»[١].

لقد تخيَّرنا من المباراة التي عقدها يزيدُ فقراتٍ، وأهملنا أخرى، وأغفلنا الأراجيزَ التي شفع بها الشعراء الثلاثةُ منثورهم بالمنظوم. ومَنْ يقرأ النصوصَ النثرية كاملةً ومشفوعةً بالأراجيز الثلاث- وهي في صفةِ الأسد أيضاً- يجدْها كلَّها مُرْسَلَها والموزونَ معرضاً من معارض الغريب العجيب، كأنَّ هذه الألفاظ جيلٌ من مفرداتِ ما قبل التاريخ، فقَدَ صلتَه بالحياة المَعِيشة، فانقرضَ بانقراض الأسود، وحُنِّط ودُفِن في قبور المعجمات. وباختصار شديد تستطيعُ أن تقول: إن الغريب سربلَ وصفَ الحيوان بقيود ثقال، فرسَفَ بها ولم ينطلقْ، وقصَّ جناحي الخيال، فأسفَّ ولم يحلِّقْ.

٤- المدن

نقلت الفتوح أعراب نجد والحجاز من الوبر إلى المدر، فنزلوا حواضر أوسع من مكة والمدينة والطائف، وعايشوا شعوباً لم يألفوها من فرس وأنباط، وبربر وأقباط، فأدهشهم ما أبصروا من أمصار عامرة، وراحوا يمصرون أمصاراً أخرى يستقلون بها، أشهرها البصرة والكوفة اللتان مصرهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد أن استقرَّت جيوشُ الفتح في المدن التي عمرتها، أخذت تتعصَّب للمنازل تعصُّبها للقبائل، فتفاخر الكوفةُ الحِيرة، وتحمل المفاخرة بعضَ مَنْ يتعصَّبون للحيرة على الردّ، فيأتي الردُّ وصفاً للأرض، وإطراء للهواء والسماء، وتعظيماً للتاريخ العريق. قال أبو الفرج الأصفهاني[٢]:

«كان بعضُ ولاة الكوفة يذمُّ الحيرةَ في أيام بني أمية.فقال رجلٌ من أهلها: أتعيبُ بلدةً، بها يُضرَبُ المثلُ في الجاهلية والإسلام؟

قال: وبماذا تُمدح؟

قال: بصحة هوائها، وطيب مائها، ونزهة ظاهرها. تصلح للخُفِّ والظِّلْف. سهلٌ وجبل، وبادية وبستان، وبرٌّ وبحر، محلُّ الملوك ومزارهم، ومسكنهم ومثواهم».

---

(١) نوادر القالي/ ١٨٠.

(٢) الأغاني٢/ ٣٥١.

وفي وصف البلدان تقعُ على ضربين من الوصف: أحدهما يُكثر من تَعْداد البلاد، ويوجز في وصف كلِّ بلد. والثاني يختار بلداً واحداً، يُقدّمه على سواه، ثمَّ يوفيه حقَّه من الوصف المفصَّل، فتحسُّ أن في هذين الضربين المختلفين تمهيداً للوصف الذي ملأ كتباً مطولة، ألَّفها بعد أمد رحَّالةُ العصر العباسي. ومنها «أحسنُ التقاسيم في معرفة الأقاليم»، لمحمَّد بن أحمد المقدسي [ت: ٣٩٠هـ].

من الضرب الأول نصٌّ مطوَّل مفصَّل ذكره ابنُ عساكر في حديثه عن ابن القِرِّيَّة حينما جيء به أسيراً إلى الحجاج بن يوسف، فراح الحجّاج يسأله عن البلدان[١].

«قال له الحجاج: كيف عِلْمُك بالأرض؟

قال: علمي بها كعلمي ببيتي.

قال: فأخبرني عن الهند.

قال: بحرُها درٌّ، وترابها مِسْك، وحطبها عود، وورقها عِطر.

قال: فأخبرني عن مكة.

قال: تمرُها دَقَلٌ[٢]، ولصُّها بطل، إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلُّوا بها ضاعوا.

قال: فأخبرني عن عُمان.

قال: حرُّها شديد، وصيدُها عتيد، يشدُّون الجلوفَ[٣]، وينزلون الطفوف[٤]، وكأنَّهم بهائمُ ليس لها راع.

قال: فأخبرني عن اليمامةِ.

قال: أهلُ جفاء وجَلَدٍ، وطِيرة ونكَدَ.

قال: فأخبرني عن البصرة.

قال: ماؤها مالح، وشربها سانح، ومأوى كلِّ تاجر، وطريق كلِّ عابر.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٥/ ١٣٣، وفيات الأعيان ١/ ٢٥٣.

(٢) أردأ التمر.

(٣) ج: جلف، كلّ ظرف ووعاء.

(٤) ج: طف، ساحل البحر وجانب البرّ.

قال: فأخبرني عن واسط.

قال: جنةٌ، بين حماة وكَنَّةَ.

قال: وما حماتُها وكنَّتُها؟

قال: البصرةُ والكوفة ودجلة والفرات، يحقرانِ شأنَها، وينقصانِ الخير عنها.

قال: فأخبرني عن الكوفة.

قال: ارتفعت عن البحر، وسفلت عن الشام، فطاب ليلها، وكثر خيرها».

وقبل أن نضعَ بين يديك نصّاً من الضرب الثاني يحسنُ بنا أن ننبِّه على أن ما ذكرنا من كلام ابن القرية، مع أنه ورد في كتابٍ من كتب التاريخ الموثوقة، لا يؤرِّخ من الحقائق إلّا أيسرها، وأن كثيراً من الأحكام التي يحكم بها للبلدان أو عليها إطراءً أو إزراءً أحكامٌ ملفَّقة لا محقَّقة، وأن حظَّها من جمال الأدب فوق حظِّها من حقائق التاريخ والجغرافية، لأسباب كثيرة:

أولُها أن الأسلوب المسجَّع قوَّل ابن القرية أقوالاً يشتطُّ في معانيها ليقيم من مبانيها.

وثانيها أن أوصافه آراء وانطباعات شخصية، يخالطها الهوى، والهوى مَفْسَدةٌ للعقل.

وثالثها أنك إذا قرنتَ ما رواه ابن عساكر بما رواه ابن خلكان وجدت النصَّينِ مختلفين، حتى إن ما يصفُ به ابن عساكر عُمان يصف به ابن خلكان البصرة.

والرابع أن في النصّ أوصافاً يكذّبها الواقع كقوله عن البصرة: «شتاؤها جليد»، والجغرافية تقول: إنها حارة شديدةُ الحرارة، لا يهطلُ فيها ثلج، ولا يبردُ هواءٌ، ولا يجمد ماء.

والضرب الثاني من وصف المدن- وهو أدقُّ من الأول وأصدق- ما وصف به الواصفُ مدينة، أيفعَ فيها واحتلم، وشبَّ واكتهل، فعام في بحرها، وهام ببرها، وفاء إلى أشجارها، وأصاب من ثمارها. إن أقام فيها حمد السكينة والطمأنينة، وإن رحل عنها حن إليها حنين عاشق مفارق على النحو الذي يتجلّى فيما وصف به خالد بن صفوان المعروف بابن الأهتم [ت: ١٣٣هـ] مدينة البصرة.

وابن الأهتم التميمي المنقري كان من أفصح فصحاء العرب، ولد ونشأ في البصرة، وكان أيسرَ أهلها مالاً، وأَرْغَدَهم حالاً، إذا فارقها لم يفارق خيالها، وإذا نزل غوطة دمشق، وجالس الخلفاء لم يتملَّق عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك بتعظيم دمشق، وتحقير البصرة، بل راح يصوِّرُها تصوير المتعلّق برياضها، المَشُوق إلى أرباضها، فيقول، وهو في مجلس هشام بن عبد الملك[١]: «يغدو قانصانا، فيجيءُ هذا بالشبُّوط والشِّيم[٢]، ويجيءُ هذا بالظبي والظليم. ونحن أكثر الناس ساجاً[٣] وعاجاً، وخزّاً وديباجاً، وخريدة[٤] مغناجاً[٥]، وبرذَوْناً[٦] هِملاجاً[٧]، ونحن أكثر الناس قَنْداً[٨] ونقداً، ونحن أوسعُ الناس بريَّة، وأربقُهم[٩] بحريَّة، وأكثرهم ذريَّة، وأبعدهم سريّة. بيوتُنا ذهبٌ، ونهرنا عجب، أولُه رُطب، وآخرُه عنب، وأوسطُه قَصَب.

فأمَّا نهرُنا العجبُ، فإن الماء يقبل عنَقاً[١٠]، ويفيضُ مندفقاً، وله عُبابٌ، ونحن نيامٌ على فرشنا، حتى يدخل أرضَنا، فيغسل غثَّها[١١]، ويُبدي مُنْبَثَّها، فنبلغ منه حاجتنا، يأتينا في أوانِ عَطَشنا، ويذهب في زمان ريِّنا، ولا يحجبُنا عنه حجاب، ولا تُغْلق دونه الأبوابُ، ولا يتنافس فيه من قلَّة، ولا يُحْبَس عنّا من علة.

وأمَّا الرطب عندنا فمن النخل في مباركه، كالزيتون عندكم في منابته. هذا على أفنانه، كذاك على أغصانه، هذا في زمانه، كذاك في إبَّانه[١٢]، من

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٥٧.
(٢) ضربان من السمك.
(٣) ضرب من الشجر والطيلسان الأخضر.
(٤) اللؤلؤة لم تثقب، أراد بها هنا الجارية البكر.
(٥) ذات غنج وحُسن دلّ.
(٦) من الخيل ما كان من غير نتاج العراب، الدابة أو نوع من الدواب.
(٧) الحسن السير في سرعة.
(٨) عسل قصب السكر إذا جمد.
(٩) أكثرهم سيطرة على البحر.
(١٠) سريعاً.
(١١) رديئها ووخمها.
(١٢) وقته وحينه.

الراسخات في الوحل، المُطْعمات في المَحلْ، المُلقحات بالفحل، يخرجنَ أسفاطاً وأقساطاً، كأنما مُلِئت رياطاً[١]. ثم ينفلقن عن قُضبان الفضَّة، منظومةً باللؤلؤ الأبيض، ثم تتبدلُ قضبان الذهب منظومةً بالزبرجد الأخضر، ثم تصيرُ ياقوتاً أحمرَ وأصفرَ، ثم تصيرُ عسلاً في شنَّة[٢] من سحاء[٣]، ليستْ بِقِرْبة ولا إناء، حَوْلَها المَذابُّ، ودونها الجرابُ، لا يقربها الذبابُ، مرفوعةً عن التراب، ثم تصير ذهباً في كِيَسَةِ الرجال، يُستعان بها على العيال.

وأمَّا بيوتُنا الذهبُ، فإن لنا عليهم خَرْجاً في السنين والشهور، نأخذُه في أوقاته، ويُسَلِّمه الله تعالى من آفاته، وننفقه في مرضاته.

فقال له مَسْلمة: أنى لكم هذه يا بنَ صفوان، ولم تغلبوا عليها، ولم تسبقوا إليها؟ فقال: ورثناها عن الآباء، ونعمرها للأبناء، ويدفع لنا عنها ربُّ السماء».

إذا أرسلتَ طرفكَ في النصّ السابق إرسالَ الباحث عن حقائق التاريخ والجغرافية عاد بها إليك طرفُك بلا إفراط ولا تفريط محقَّقةً موثقةً. وإن أرسلته إرسالَ الرسَّام المفتون بالخطوط والظلال والأصباغ، رجع إليك بألواحٍ مُرْهَفة الخطوط، مترفة الظلال، مفوَّفة الأصباغ، تصوّر شطَّ العرب الغزير الأمواه، المتوهّج الشمس، وقد انتصبت قدودُ النخل الفوارع على جانبيه انتصابَ العرائس الموائس. فتحسُّ عندئذ أن ابنَ الأهتم أزارك معرضاً من معارض الرسم، صنع ألواحه الواقعية رسامٌ إيطالي في عصر النهضة.

فحضارةُ البصرة العمرانية تملأُ حواسَّك كلها بغنج النساء المترفات، وتكسُّر الحرير الشفيف، وفخامة العاج والساج. ونهرُها العظيم المتدفق عَنَقاً وغَدَقاً يروي موسمها المعطاء، وتعرضُ أمام عينيك أطوار الثمار من بلح إلى رُطب، ومن رطب إلى تمر، ويلوِّن هذه الأطوار تلويناً متعاقباً بالبياض

(١) ج ريطة: ملاءة.

(٢) قربة صغيرة.

(٣) نبت شائك ترعاه النحل، عسله غاية، وفي الكلام تقديم وتأخير: يصير عسلاً من سحاء في شنه.

والخضرة والصفرة والحمرة، في صيف صاف، وتحت سماء، لا غيوم فيها ولا وجوم، وشمس متوقدة، تحوِّل قطوفَ النخيل من لؤلؤٍ إلى زبرجد، ومن زبرجد إلى ياقوت. وهو مشهدٌ حقيقي من أجمل المشاهد التي تزدان بها مدن الخليج العربي عامة، ومدينة البصرة خاصة، امتزجت فيه حضارةُ المدينة بنضارة الطبيعة.

وهكذا استطاعتْ ريشةُ ابن الأهتم الرشيقة الحركات، الأنيقة الألوان أن تجمع صدق الواقعية إلى براعة الرسم على نحو فنيّ، يرقى بمنثوره إلى منظوم الشعراء.

٥- القبائل والشعوب

لم تكن الطبيعةُ على نضارتها، والمدينةُ على حضارتها لتنتزعا من صدور العرب جذورهم القبلية، ومآثرهم الموروثة حتى بعد أن خرجوا من نجد والحجاز، وأقاموا في الشام والعراق، كأنَّ ماضيهم القديم على شظَفِه، كان أحبَّ إليهم من حاضرهم الجديد على ترفه، أو كأنَّ هذا التعلُّقَ بالقبيلة كان ضرباً من ضروب الحفاظ على الهوية خوفاً من الضياع في زحمة الشعوب والقبائل.

ولهذا راحوا يصفون قبائلهم وصفاً يختلطُ فيه الخيالُ بالواقع. والقسم الأعظمُ من هذا الوصف مضمَّخٌ بالفخر، نزَّاع إلى الغلوّ، تطغى مفاخرته على حقائقه.

وممَّا شجَّعهم على هذا الضرب من الوصف أن الخلفاء والأمراء أنفسهم كانوا يستثيرون في جلسائهم عجرفية الجاهلية، فيتمتعون بما يسمعون من نعوت تطيرُ بهم على أجنحة الذكريات إلى ماضيهم العريق. فينقلبُ الوصف من تحليل واقعيّ إلى صنعة لفظية.

«سألَ معاوية بنُ أبي سفيان عبدَ الله بن عبد الحجر بنِ عبد المدان عن قومه، فقال له: كيف علمك بقومك؟

قال: كعلمي بنفسي.

قال: ما تقول في مراد؟

قال: مدركو الأوتار[١]، وحماة الذمار[٢]، ومحرزو الخِطار[٣].

قال: فما تقول في النخع؟

قال: مانعو السَّرْب[٤]، ومسعرو الحرب، وكاشفو الكرب.

قال: وما تقول في بني الحارث بن كعب؟

قال: فراجو اللكاك[٥]،وفرسان العراك، ولزاز الضكاك، تراكِ تراك»[٦].

بهذا الأسلوب الحواريِّ الحيّ يمتدُّ الحديث، ويتعاقبُ الوصف: الخليفةُ يسأل، والجليس يُجيب، فتحسُّ أنّ ما وصف به الواصفُ العشائر السابقة، يتكرَّر في وصف العشائر اللاحقة.فما قيل في مراد، والنخع، وبني الحارث، يقال في سعد العشيرة، وبني زبيد، وصداء. فلا يتغيَّر من الوصف غير الألفاظ، أمَّا المعاني فالطائفةُ العظمى منها مؤتلفات لا مختلفات، وربَّما أوفى بها التآلف على الترادف.

إن أبرز ما يَسِمُ هذا الضربَ من الوصف تطويعُ المعاني للألفاظ، والرتوبُ في الأسلوب، وفتورُ العواطف، أو تكرارُ عاطفة واحدة، وهي المباهاةُ المتغطرسة، غير المشفوعة بأحداث تسوّغها، وأدلة تشق لها الطرق إلى قلوب القراء.

أمَّا إذا اقترن الوصف النابع من الخيلاء بوصف الأعداء المشفوع بالإزراء، فحينئذٍ تتأرَّج المشاعر، وتتألَّق الصور، وينجم تألقها عن اقتداح الضدّ بالضد، واقتران الجمال بالقبح، ومن هذا الضرب ما وَصفَ به أبو صخر الهذلي الأمويين والزبيريين على سبيل الانتقال من الخير إلى الشر، ومن النفع إلى الأذى، ومن الصورة الجميلة إلى نقيضتها القبيحة.

---

(١) الثارات.

(٢) كل ما يجب على المرء أن يحميه.

(٣) وقع ذنب الجمل بين وركيه إذا خطر عند الشبع والسمن، ولا معنى لها هنا، ربما كانت الأخطار: ج الخطر بمعنى الرهن والسبق.

(٤) الإبل وما رعى من المال.

(٥) الزحام، وكذا الضكاك.

(٦) أمالي القالي١/ ١٥٩.

وفد أبو صخر الهذلي[١]- وكان أمويّ الهوى-على ابن الزبير يسترفدُه، فمنعه، «وقال له: عليك بني أمية، فاطلب عندهم عطاءَك.

فقال يصفُهم ويعرِّض بابن الزبير: إذن أجدهم سِباطاً[٢] أكفُّهم، سمحةً أنفسُهم... ليسوا بأذناب ولا وشائظ[٣] ولا أتباع، ولا هم في قريش كَفَقْعة[٤] في قاع، لهم السؤدد في الجاهلية، والملك في الإسلام، لا كمن لا يُعَدُّ في عيرها[٥] ولا نفيرها، ولا حكم آباؤه في نقيرها[٦] ولا قِطميرها[٧].... وكيف تقابل الرؤوسُ بالأذناب؟ وأين النصلُ من الجفن، والسِّنانُ[٨] من الزُّجِّ[٩]، والذُنابى[١٠] من القدامى[١١]؟ وكيف يُفضلُ الشحيحُ على الجواد، والسوقةُ على المِلكِ، والمُجيع بخلاً على المطعم فضلاً؟».

وبعد أن تعايشت القبائلُ في المدن الكبرى، وتداخلت الأنسابُ في الأحياء، وشقَّ على العرب أن تستقلَّ كل عشيرة بحيٍّ من أحياء الحواضر ظهر نمطٌ جديدٌ من الوصف لظهور نمطٍ جديد من التقسيم، إذْ أخذ الانتماءُ إلى الحاضرة يسيرُ في ركاب الانتماءِ إلى العشيرة، وراح الوصَّافون يسمون سكَّان كلِّ بلد بسمات تميزهم من سواهم.

وربَّما كان وراء هذا الضرب من الوصف أغراضٌ سياسية أو إدارية. وفَحْوى هذه الأغراض، إن صحَّ ما نزعم، أن يسأل الخليفةُ زوَّاره وأهلَ العلم بالبلدان، عن أهل إقليم من الأقاليم، أو عن سكان مدينة من المدن، وليس في

(١) الأغاني ٢٤/ ١١١.
(٢) أسخياء.
(٣) دخلاء في قومهم.
(٤) ضرب من الكمأة يضرب بها المثل في الذلة.
(٥) العير: الإبل التي يتّجرون عليها، النفير: القوم يخرجون للنصرة، وأصله مثل (لا في العير ولا في النفير) يضرب للرجل يُحطّ أمره ويصغر قدره.
(٦) النقرة في ظهر النواة.
(٧) القشرة الرقيقة على النواة ويطلق كلاهما على الشيء الحقير.
(٨) الحديدة المسنونة في أعلى الرمح يطعن بها.
(٩) الحديدة تركب أسفل الرمح تركز به الرمح في الأرض.
(١٠) للطائركالذنب للفرس.
(١١) مقدم ريش الطائر.

نيَّته أن يعرف أصولَهم القبلية، وإنما في نيته أن يتبيَّن أهواءهم السياسية، وما جُبلوا عليه من نزوع إلى الحرب أو السلم، وإيثار للعدوان أو الموادعة، والعصيان أو المطاوعة، لكي يختار من بطانته لكلّ إقليم ما يصلحُ له من الولاة، فيبعث زياد ابن أبيه الشديد إلى الكوفة العصيَّة، وعمرو بن العاص اللين إلى الكنانة المسالمة.

«سأل معاويةُ بن أبي سفيان ابنَ الكوّاء عن أهل الكوفة.

فقال ابن الكواء: أَبْحَثُ الناس عن صغيرة. وأَضْيَعُهم لكبيرة.

قال: فأهلُ البصرة؟

قال: غنم وَرَدْن جميعاً، وصَدَرْن شتى.

قال: فأهلُ الحجاز؟

قال: أسرعُ الناس إلى فتنة، وأضعفُهم فيها.

قال: فأهل مصر؟

قال: أجدَّاء أحدَّاء أشدَّاء، أَكْلَةُ مَنْ غَلَب.

قال: فأهلُ الموصل؟

قال: قلادةُ أَمَةٍ، فيها من كلِّ خرزة.

قال: فأهلُ الجزيرة؟

قال: كُناسةٌ[1] بين المصرين. ثم سكت.

قال ابن الكوّاء: سَلْني. فَسَكَت.

قال: لتسأل أو لأخبرك عمَّا عنه تحيدُ.

قال: أخبرني عن أهل الشام.

قال: أَطْوَعُ الناس لمخلوق، وأَعْصاهم لخالق»[2].

وممّا يقوي ما زعمنا من انطواء هذه المحاورات الوصفية على أغراض سياسية أو عسكرية ما وصف به موسى بن نصير الشعوب الأجنبية من روم وبربر وفرنجة.

---

(١) قُمامة أو موضع رميها.

(٢) معجم البلدان ١/ ٤٧، ومختصر تاريخ دمشق ١/ ١٣٥.

روى الإمام الذهبي[١] أن سليمان بن عبد الملك سأل موسى عن حروبه المظفرة، «فقال: أيُّ الأمم أشدُّ قتالاً؟

قال: هم أكثر من أن أصف.

قال: فأخبرني عن الروم.

قال: أُسْدٌ في حصونهم، عقبانٌ على خيولهم، نساءٌ في مراكبهم. إن رَأَوْا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبةً فأوعالٌ، تذهب في الجبال، لا يَرَوْن الهزيمة عاراً.

قال: فالبربر؟

قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسيةً، غير أنهم أغدرُ الناس.

قال: فأهلُ الأندلس؟

قال: ملوك مترفون، وفرسان يجبنون.

قال: فالفرنج؟

قال: هناك العدَدُ والجَلَدُ، والشدَّة والبأس».

إنَّ ما وصف به موسى بن نصير هؤلاء وأولئك من شعوب الأرض نجمَ عن تجربة واختبار في ميادين القتال، فكان إلى التأريخ أقرب. وإن ما وصف به ابن عبد حجر عشائر قومه نجم عمَّا أحس به من زهو واعتزاز، فكان على الفخر أحرص، وشتَّان ما بينهما: فالاختبار يلخّص الحقائق، والافتخار يعظم المآثر أو يختلقها. ولهذا لم يُعْنَ ابن نصير بالسجع والازدواج وتجميل اللفظ، لأن ألفاظه منقادةٌ لمعانيه، لا قائدة لها.

ويُخيَّل إلينا أنه كلَّما خالط الفخر الوصف فقدت الصفات كثيراً من عناصر الصدق والدقة، وحاولت أن تصوِّر المثلَ الأعلى كما يتصوَّره الواصف، فطوت المثالبَ، ونشرت المناقب، فشقَّ على القارئ أن يستعين بهذه الصفات على فهم الطبائع، ودراسة الأحوال، وتمييز قوم من قوم، على النحو الذي وصف به دغفل النسابة بعض العرب، فقال، وقولُه يكرِّر بعضه بعضاً بعبارات مختلفة الألفاظ مترادفة المعاني[٢]: «أحداثٌ قادة، وشباب

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٩.

(٢) البصائر والذخائر ٤/ ١٦٥.

سادة، وكهول ذادة[١]، لهم الشرفُ الشامخ، والعزُّ الباذخ[٢]، والكرم الصريح، والعنصرُ الفسيح. بهاليلُ[٣] أسخياء، غطارفةٌ[٤] أغنياء، كرام أعفَّاء، لهم الأخلاق الطاهرة، والألباب الحاضرة، والوجوهُ الناضرة. بحار النَّيْل، وأحلاسُ[٥] الخيل... كهولهم غُيوث، وشبابُهم ليوث. وقائعُهم مشهورة وأيامُهم مذكورة، علا شرفُهم فرَجَح، وطال عزُّهم فطمح.... هم الليوثُ الهواصر، والغيوثُ البواكر».

ويُخيَّلُ إلينا كذلك أنه كلَّما خالط الذمُّ الوصف جاء الوصف مشوباً بالغلوّ أيضاً، فأغفل الفضائل، وشهَّر بالرذائل، فإذا هو نظيرُ نديده في ضُؤولة الحظِّ من الدقة والصدق، لكنه يظلُّ أحفلَ بالوقائع من قسيمه، وأحرصَ على تصيُّد الحقائق من خصيمه. ومن هذا الضرب ما وصف به عبد الله بن حسن أهل الكوفة، إذ قال[٦]: «نفخُ[٧] العلانية، خورُ السريرة، هرج[٨] في الرخاء، جزع في اللقاء. تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبُهم[٩]، لا يبيتون[١٠] بعدَّة في الأحداث، ولا ينوؤون[١١] بدولة مَرْجُوَّة».

٦- النساء

تقعُ فيما وصف به فصحاءُ العصرِ الأموي النساء على ضربين من الوصف: ضربٍ خياليّ، يصور المثل الأعلى في الجمال كما يريد الواصفُ أن يكون.

---

(١) حماة مدافعون.
(٢) المتطاول العالي.
(٣) ج بهلول: الحيي الكريم، أو العزيز الجامع لكل خير.
(٤) ج غطريف، سيد أو سخي سري شاب.
(٥) فرسان ملازمون ظهور الخيل.
(٦) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٥.
(٧) ذوو فخر وكبر.
(٨) مختلطون.
(٩) جبناء.
(١٠) لا يعدون للأمر عدته.
(١١) لا ترتجى لهم دولة لعجزهم عن النهوض بذلك.

وضربٍ واقعيّ، تتراءى بين تضاعيفه امرأةٌ واحدة حقيقية بما فيها من حسن وقبح.

والسمةُ الطاغيةُ على الضربين هي طغيانُ غريزةِ الجنس على سموِّ النفس، حتى كأنّ المرأة تمثالُ من رخام، لا إنسان له جسد وروح، وخَلْق وخُلُق.

«قال عبدُ الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء.

فقال: خُذْها يا أميرَ المؤمنين ملساءَ القدمين، درماءَ[١] الكعبين، مملوءةَ الساقين، جمَّاءَ[٢] الركبتين، لفّاءَ[٣] الفخذين، مُقَرْمَدة[٤] الرُّفغين[٥]، ناعمةَ الأليتين، مُنيفة[٦] المأكمتين[٧]، بدَّاءَ الوركين، مهضومة[٨] الخصرين، ملساء المتنين، فَعْمةَ[٩] العضدين، فخمة[١٠] الذراعين، رخصة[١١] الكفين، ناهدة الثديين، حمراءَ الخدين، كحلاء العينين، زجَّاءَ[١٢] الحاجبين، لمياء[١٣] الشفتين، بَلْجَاء[١٤] الجبين، شماء[١٥] العرنين، شنباء[١٦] الثغر، حالكة الشعر، غيداءَ[١٧] العنق، عَيْناء[١٨] العينين»[١٩].

وتعليقُ عبد الملك على ما سمع يدلُّك على أن هذا الضرب من الوصف يصوِّر من النساء ما يتصوّره الواصفُ مجتمعاً، وهو في الواقع أَشتات، إنه يتخيَّر أحسن ما في النساء، ويجمعهُ في واحدة، فإذا هو يرسم المثل الأعلى للجمال والكمال، لا الواقع الملموس المحسوس.

«قال عبد الملك للغطفاني: ويحك، وأين توجد هذه؟

قال: تجدها في خالص العرب».

---

(١) مستوية يغطيهما اللحم.
(٢) كثير اللحم.
(٣) ممتلئة.
(٤) ضيقة.
(٥) أعالي باطن الفخذين المحيطة بالعانة.
(٦) مرتفعة.
(٧) المأكمة: العجيزة أو رأس الورك.
(٨) ضامرة.
(٩) ممتلئة.
(١٠) ضخمة.
(١١) ناعمة، لينة.
(١٢) دقيقتهما مع طول وتقوس.
(١٣) سمراء أو سوداء.
(١٤) واسعة مشرقة.
(١٥) مرتفعة قصبة الأنف.
(١٦) باردة عذبة.
(١٧) ناعمة.
(١٨) واسعة.
(١٩) العقد الفريد ٦/١٠٨.

إذا انتقلت إلى الضرب الثاني من وصف النساء، وجدت نفسك تنتقل من الخيال المتصوّر إلى الواقع الملموس، فغاب عنك الغطفاني ووصفه، والموصوفة ومحاسنها، وعبد الملك وإخفاقه، وتمثلتْ لك واصفةٌ وموصوفة، كلتاهما حقيقية الشخصية، وامتدت دونك أبعاد اجتماعية تؤكد دقة الواصفة، وواقعية الموصوفات. قال أبو الفرج الأصفهاني[١]:

«أتى مصعبُ بن الزبير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وسعيد بن العاص، إلى عَزَّة الميلاءِ. فقالوا: إنا خطبنا، فانظري لنا.

فقالت لمصعب: ومن خطبت؟

فقال: عائشة بنتَ طلحة.

فقالت: فأنت يا بن أبي أحيحة؟

قال: عائشة بنت عثمان.

قالت: فأنت يا بن الصديق؟

قال: أمَّ القاسم بنت زكريا بن طلحة.

فلبست خفَّيْها وخرجت إليهن، فنظرت إليهن، ثم عادت.

فقالت: أمَّا عائشة، فلا والله إن رأيت مثلها مُقبلةً ومدبرةً، محطوطة[٢] المتنين[٣]، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب[٤]، نقيَّة الثغر وصفحة الوجه، فرعاءَ الشعر[٥]، لفَّاءَ الفخذين[٦]، ممتلئة الصدر، خميصة[٧] البطن، ذات عكن[٨]، ضخمة السرة، مسرولة[٩] الساق، يرتجُّ ما بين أعلاها إلى قدميها. وفيها عيبان: أمَّا أحدهما فيواريه الخمار، وأمّا الآخر فيواريه الخفُّ؛ عظم القدم والأذن. . .

[وأمَّا عائشةُ بنت عثمان] فوالله ما رأيت مثلَ خَلْق عائشة بنتِ عثمان لامرأة

---

(١) الأغاني ١٠/ ١٧٧.
(٢) ممدودتهما.
(٣) جنبا الظهر.
(٤) موضع القلادة من الصدر أو عظام الصدر.
(٥) طويلته.
(٦) التفافهما أو ضخامتهما.
(٧) ضامرة.
(٨) ثنيات في البطن من السِّمن.
(٩) قد يكون أرادت طولهما.

قطُّ. ليس فيها عيبٌ. والله لكأنَّما أُفرغت إفراغاً. ولكن في الوجه ردَّةٌ[١]. وإن استشرتني أشرتُ عليك بوجه تستأنِسُ به.

وأمَّا أنت يا بن الصديق، فوالله ما رأيت مثلَ أمِّ القاسم، كأنَّها خُوطُ[٢] بانة تثنى، وكأنَّها جَدْلُ عِنان، أو كأنها جان[٣] يتثنى على رمل، لو شئتَ أن تعقد أطرافها لفعلت. ولكنّها شختةُ[٤] الصدر، وأنت عريضُ الصدر، فإذا كان ذلك كان قبيحاً. لا، والله حتى يملأ كلُّ شيءٍ مثلَه».

وإذا تجاوزت الجانب الأدبيَّ الفنيَّ إلى الجانب الفكري، وجدت أنَّ لهذا الوصف بعداً اجتماعياً، لأنه يمثل وَجْهَي المجتمع العربي الجديد الذي اختلطت فيه الإماء بالحرائر. وخلاصة هذا البعد أن الثلاثة -وهم من أشراف قريش- تجنَّبوا التعرُّضَ للحسيبات النسيبات، ولم يُنفِذوا إليهن خاطبة من ذوات الشرف بل أرسلوا إليهن قينةً من قِيان المدينة لكي تتعرَّفهن، وهي عزَّة الميلاءُ [ت: ١١٥هـ]، فلماذا أرسلوها ولم يُرسلوا امرأةً قرشية من أسَد، أو تيمَ، أو عبد شمس؟

يغلبُ على الظنّ أنهم تخيروا عزَّة الميلاء-وهي مولاةٌ- لأنها لم تكن تجد أَدْنى غضاضة في مجالسة الرجال والغناء لهم، فكيف تتحرَّج من السفارة بين الرجال والنساء؟

ومن إرسالها تستطيع أن تستنبط أن ما أشاع أبو الفرج الأصفهاني وأمثاله من اختلاط الرجال بالنساء في العصر الأموي كان بين الرجال عامَّةً من العرب والموالي، والقيان والجواري خاصَّة من كلِّ جنس غير عربي، وأنَّ الحرائر لم يكن لهن موضعٌ في هذه المجالس.

٧- الغناء والخمر

إن أدلَّ ما يدلُّك على صِحَّة ما زعمنا من الشكِّ فيما روى المؤرخون عن اختلاط الرجال بالنساء، ومسامرة الشعراء للشريفات العفيفات أن الأمويين

---

(١) قبح مع شيء من الجمال.
(٢) غصن ناعم.
(٣) حية كحلاء العينين لا تؤذي، شبهتها بها في اللين.
(٤) ضئيلة.

كانوا ينظرون بعين الازدراء إلى الغناء، وإلى المشتغلين به تلحيناً وإنشاداً، وأن أشدَّ الخلفاء كَلَفاً به وبالخمر- وهو الوليدُ بن يزيد- حذَّر من الوقوع في حبائل إبليس التي يحوك شركها المغنّون، وحرَّم الطرب على الأمويين عامَّة، وعلى نسائهم خاصَّة، ووصف الغناء وصفاً يخالطُه الاحتقارُ لا الإعجاب، وعلَّل هذا الوصفَ بأن الطربَ ينافي الأدبَ، ويذهب بالرجولة، ويفسد الخلق، ويستثير الغرائز، فقال[١]:

«يا بني أميةَ، إياكم والغناءَ، فإنه ينقصُ الحياء، ويزيد من الشهوة، ويهدمُ المروءة، ويثوِّرُ على الخمر، ويفعلُ فِعل السكر. فإن كنتم- لابدَّ- فاعلين، فجنّبوه النساءَ، فإن الغناء رُقيةُ الزنا. وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبُّ إليَّ من كلّ لذة، وأشهى إليَّ من الماء البارد إلى ذي الغُلَّة، ولكن الحقّ أحقُّ أن يقال».

وإذا كان أشدُّ الخلفاء الأمويين تعلُّقاً بالغناء قد وصفه هذا الوصف المُزري به وبأهله من مُغنين ومُستمعين، فجعله محرِّضاً على معاقرة الخمر، وهَتْك الستر، فليس من المستغرب أن تجد أذكى الخلفاء، وأحرَصهم على الاحتكام إلى العقل يصفُ الخمر وصفاً يحقّرها وشاربها، ويسخر ممَّن يظنُّ فيها البهجةَ والسيادة، والرَّغَدَ والحبور، وهي عند التحقيق أمُّ الفواحش، وجالبةُ المصائب، والمُفضية إلى الشرِّ والسفاهة، والفقر والجنون. قال معاوية بن أبي سفيان[٢]:

«كم من سيِّدٍ أدمنها، فتركته ضُحكةً وأُحدوثة، ومن ذي رغبة فيها قد صحا عنها، فصار سيِّدَ قومه وعزَّهم. والله ما وضع شيءٌ قطُّ الرجلَ كما وضعه الشرابُ. والله لهي الداءُ العياء[٣]. وما رأيتُ كذي عَقْلٍ شَرِبَها، أو رأى منْ شربها، فعاد لشُربها، وقد علم ما فيها من العار والشنار. وإنها لهي الداعيةُ إلى كل سوْءة، والحاملةُ على كل بليّة، والمُحسِّنة لكلّ قبيح. وما هي بأكرومة، وما يريدُ الله بها خيراً. وإنها لتورث الفقرَ والفاقة، وتحملُ على العظيمة، وتزري بالكريم».

---

(١) الأغاني ٧/ ٧٠.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٩٧.

(٣) الذي لا يبرأ منه.

ومع غلبةِ التحريم على وصف الخمر، والتبغيض على وصف الغناء. فقد يظفر القارئ بشذرات من نثر العصر الأموي، وتوصف بها آلاتُ الغناء وصفاً مشرقاً، أو يلاعَبُ بها أبناء المغنين على سبيل المداعبة الطريفة. قال ابن عبد ربه[١]:

«قال يزيدُ بن عبد الملك يوماً - وذكر عنده البَرْبَطُ أي العود-: ليت شعري ما هو؟ فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أنا أخبرُك ما هو، محدودبُ الظهر، أرسحُ[٢] البطن، له أربعة أوتار، إذا حرّكت لم يسمعها أحدٌ إلَّا حرَّك أعطافه، وهزَّ رأسه».

وقال أبو الفرج الأصفهاني[٣]: «مرَّ ابنٌ صغير لسعيد الهذلي المغنّي، من زوجه ابنة ابن سريج المغني، بأشعب، فحمله على كتفه، وجعل يرقصه، ويقول: هذا ابنُ مزامير داوود، وُلد على عود، واستهلَّ[٤] بغناء، وحُنِّك بملوى[٥]، وقُطعت سرّتُه بوتر، وخُتن بمضراب».

٨- الأشخاص

ربَّما كان وصفُ الأشخاص أحبَّ إلى فصحاء العرب من وصف الطبيعة جامدِها والحيِّ، ومن الإطراء أو الإزراء بالبلدان قديمِها والمستحدث، ومن نعت الغناءِ أصواتِه وآلاته، ومن السخر بالخمر نَدْمانها وإدمانها، لقد حفلتْ كتبُ التاريخ والأدب بألواح فنية، رسم فيها أهلُ البيان أعلامَ الصحابة والتابعين، وكبارَ الخلفاء والولاة، وعظماءَ العلماء والقضاة رسماً متقن الخطوط، ناصع الألوان.

وعلَّةُ الاعتناء بهؤلاء وهؤلاء أن الصحابة، كما ذكرنا في كتابنا (النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة) كانوا نجوماً يتهدَّى بها التابعون، فلَمَّا انطوى جيلُ الصحابة ظهر جيلٌ آخر من نجوم الهداية، وهم التابعون. فوصف وصّافو

(١) العقد الفريد ٦/ ٧٣.
(٢) ممسوح البطن أو لا بطن له.
(٣) الأغاني ٥/ ٦٩.
(٤) الاستهلال: أول بكاء الصبي عند الولادة.
(٥) جزء من أجزاء العود.

العصر الأموي مَنْ شهدوا منهم، فكان رسمُهم بالكلمات أعْوَدَ عائدةً على الأجيال من رسمهم بالألوان، لأن ريشةَ الألفاظ ترسمُ ما ظهر من الإنسان وما بطن، وريشة الألوان ترسمُ المظاهر، وتعيا بالسرائر.

ومَنْ يُرسلْ طرفه في صور الأشخاص-وهي أكثرُ من أن يُحاطَ بها- يرجعْ إليه طرفُه بنموذجات، تمثل الصلاحَ والفساد، والعدلَ والجور، وتتراءى في سماتها وقسماتها مخايلُ الصراع السياسي، ويخالط ألوانها الملقُ والنفاقُ حيناً، والتقوى والورعُ حيناً آخر، فيحسُّ القارئ عندئذ، أن الملامح المتجلِّية فيها لا تمثّل الشخصيات المرسومةَ وحدَها، وإنما تمثلُها، وتمثل ملامح منْ رسموها.

إن إقبالَ الرسامين المبدعين في العصر الأموي على رسم من عايشوا من التابعين لا يعني أنهم أغفلوا الصحابة؛ فالصحابة في عصرهم وفي كلِّ عصر يُعَدّون صفوةَ البشر بعد النبيين، وتصويرهم والتأسي بهم بعضٌ من الدين، غير أنَّ ما ذكرنا من وصفهم في الجزء الرابع أصدقُ وأدقُّ، لأنه صدر عن معايشة مستمرة، لا عن مشاهدة عابرة. وما عرضنا من صورهم هناك يغني عمّا نعرض هنا.

فإن أبيت إلَّا أن نُزِيرك الصحابةَ في معرض من معارض العصر الأمويّ، فاعلم أن عبد الله بن عبَّاس وحدَه [ت: ٦٨هـ]- وكان من أصغرِ الصحابة سنّاً وأكبرهم علماً- صوَّر لمعاوية بن أبي سفيان أربعةَ الخلفاء الراشدين، كأنَّه لِدِةٌ من لداتهم. وهو أصغرُ من أصغرهم بعشرين سنة.

وصفَ أبا بكر الصدّيق، فنوَّه بعبادته وزهادته، وحسن سياسته وإدارته، وأمرِه بالمعروف، ونهيه عن المنكر، ولعَنَ من يلعنهُ ويطعنه. وممَّا قال في إطرائه[١]:

«رحم الله أبا بكر. كان والله للقرآن تالياً، وللشرِّ قالياً[٢].... وعن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً...و بالمعروف آمراً، وإليه صائراً، وفي الأحوال شاكراً، ولله بالغُدوِّ والآصال ذاكراً...فأعقب الله من ثَلَبه[٣] اللعائن إلى يوم التغابُن[٤]».

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٣٢٢.
(٢) مبغضاً.
(٣) ذمَّه أو طعن فيه.
(٤) القيامة.

وشهد لعمر بن الخطاب بالعدل والحزم، ونصرة الدين، والمضي في الفتح، والحَدْب على اليتامى والأيامى، وبمظاهرة الضعيف على القويّ، ثم سبَّ مَنْ يسبُّه. وممَّا وصفه به[١]:

«رحم الله أبا حفص، كان والله حليفَ الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحلَّ الإيمان، وملاذَ الضعفاء، ومعقِلَ الحنفاء، للخلق حصناً، وللناس عوناً، قام بحقِّ الله صابراً محتسباً، حتى أظهر الدين، وفتح الديار، وذكر الله في الإبكار.... فأعقب الله من يبغضه اللعنةَ إلى يوم الحسرة».

وأثنى على مناقب عثمان بن عفان. وأفضلُ فضائله الخشوع في العبادة، وتجهيزُه جيشَ العُسْرة، وإصهارُه إلى النبيّ ﷺ، ودعا على من يذمُّه ويشتمه، وممَّا قال فيه[٢]:

«رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرمَ الحَفَدة، وأفضلَ البَرَرة، وأصبر القراء. هجّاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار...صاحبَ جيش العسرة، وصاحبَ البئر، وختنَ المصطفى عليه السلام على ابنتيه. فأعقب مَنْ ثلبه الندامةَ إلى يوم القيامة».

ووصف عليَّ بن أبي طالب، فأشاد بُهداه وتُقاه، وتفقُّهه في الدين، وفصاحته في الخطابة، وتزوُّجه فاطمةَ التي أنجبت له الحسن والحسين، ثم صبَّ على من يلعنُه لعنةَ الله والناس أجمعين إلى يوم الدين[٣]:

«رحم الله أبا الحسن. كان والله علمَ الهدى، وكهفَ التقى، وعالماً بما في الصحف الأولى.. وأخطبَ أهل الدنيا سوى الأنبياء والمصطفى... وزوجَ خير النساء، وأبا السبطين. لم تر عينٌ مثلَه ولا ترى أبداً.. فعلى من لعنه لعنةُ الله والعباد إلى يوم القيامة».

وأحسنُ ما في الأوصاف السابقة الأمانةُ التاريخية، وذكرُ كلِّ خليفة بما أُثر عنه، بلا محاباة ولا بَخْس، والتجرُّد من الأهواء السياسية، ومجانبة التعصُّبِ والتحزُّب، وإنصافُ الشيخين، ومجابهةُ معاويةَ بما يكره، وتنزيهُ الراشدين عن

(١) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٣٢٢.
(٢) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٣٢٣.
(٣) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٣٢٣.

الطعن، والارتقاءُ بهم عن اللعن. وهذا الموقفُ الحازم لا يقفه إلّا من أوتيَ ما أوتي ابنُ عباس من شرف وشجاعة وبلاغة ومكانة لا يجرؤ معاوية على إنكار شيءٍ منها.

أمَّا الأشخاصُ الذين عايشهم فصحاءُ العصر الأموي وصوَّروهم فقد كانوا من طبقات مختلفة؛ كان بينهم الخلفاءُ والأمراء والفقهاء والشعراء، وأشرافُ العرب وأعيانُهم. وصفوا خَلْقهم وخُلُقَهم، وكشفوا عن طباعِهم ونوازعهم، فأشادوا بعدل مَنْ عدل، ونَدَّدوا بظلم مَنْ ظلم، فزكَّوْا عمرَ بن عبد العزيز، وشكَوْا من الحجاج بن يوسف، فجاء وصفهم بعضاً من تاريخ العرب، وشكلاً من أشكال الترجمة.

وربَّما كان عمرُ بن عبد العزيز أوفرَ الخلفاء الأمويين حظّاً من وصف الفصحاء في زمانه، لأنهم وجدوه واسطةَ العقد في الخلافة الأموية، لم يسبقه إلى تقواه سابقٌ، ولم يلحق به لاحق، ولم تُجمع الأمةُ -عدا المنتفعين بالحكم من الأمويين- على حبّ خليفة أمويّ وتعظيمه، كما أجمعت على حبِّ عمرَ وتعظيمه، وتناقُلِ مآثره وأخباره، حتى إن ما وصفه به الإمامُ مالك بن أنس [ت: ١٧٩هـ] ورواه عبد الله بن عبد الحَكَم [ت: ٢١٤هـ] جُمع في كتاب كامل.

وصف أحدُ حرّاسه-واسمه زياد- شَظَفَه وتَقشُّفَه، وهُزاله ونحوله فقال[١]:

«بعث إليَّ عمرُ بن عبد العزيز ذاتَ ليلة، فدخلتُ عليه، وعنده شمعة، وتحته شاذكونة[٢] وسخة، لا أدري أوسَخُها أغلظُ أو بؤولتها[٣]. بساطها عباءةٌ من مُشاقة[٤] الصوف، في ليلة قُرَّة، وعليه كساء أبنجاني سَمِلٌ[٥]، وقلنسوة بيضاءُ مضرَّبة غسيل، قد تنحَّى قطنُها في ناحيتها، فنظرتُ إلى جسده، فكأني لم أَرَ بين عظمه وجلده شيئاً من اللحم».

وإذا كان حارسُ عمر قد وصف ما رأى منه، فإن زوجه فاطمة بنتَ عبد الملك جاوزت المنظور إلى غير المنظور، فصوَّرت جوهره الخفيَّ الذي

(١) مختصر تاريخ دمشق ٩/ ١٠٣.
(٢) ثياب غلاظ اتخذها لجلوسه.
(٣) ضآلتها وصغرها.
(٤) ما سقط منه عند المشط.
(٥) خَلِق.

ميَّزه من بني أمية كافة؛ وهذا الجوهرُ هو إحساسه الممضُّ بفداحة الأمانة، وشعورُه المرعب بثقل التبعة، واعتقادُه الراسخ أنه مسؤول عن كلّ كبيرة وصغيرة من شؤون دولته وأمته.

قد تقول -وفي قولك نصفُ الحقيقة-: إن ابن عبد العزيز ورث هذا الجوهر عن ابن الخطاب. وتتمةُ الحقيقة أنَّ ابن عبد العزيز لم يتولَّ الخلافة بعد الصدّيق الذي اقتلع جذور الردَّة، وزرع عوامل الوحدة، وأنفذ جيوشَ الفتح إلى العراق والشام، وهو مطمئن النفس، ثابت العزم. لقد تولَّى الخلافةَ بعد خلفاء فيهم الحليمُ والسفيهُ كمعاوية ويزيد، وعقِبَ وُلاةٍ بينهم الداهيةُ والطاغية كعمرو بن العاص والحجَّاج بن يوسف، فلم يستطعْ بما ورثه من الفاروق أن يمحو ما ورثه من الأمويين.

ويُخيَّل إلينا أن إحساسه بثقل التبعة فاق إحساس الفاروق، لأنه كان يشعر شعوراً قويّاً، ظاهراً أو خفياً بأن عليه واجبين: أولهما أن يمحوَ مظالم السابقين من الأمويين، وأن يكفّر عن خطيئاتهم. والثاني أن يحكم بالعدل ليعلِّم اللاحقين كيف تُدار الدولةُ. ولذلك تضاعف قلقُه وأرقُه، وتفاقم جزعُه وهلعُه، فشقي بالخلافة، وأشقى بها أهله.

صوَّرت زوجته فاطمة بنت عبد الملك هذا الشقاء، فقالت[1]:

«والله ما كان عمرُ بأكثركم صلاةً ولا صياماً، ولكنّي- واللهِ- ما رأيتُ عبداً لله كان قطُّ أشدَّ خوفاً لله من عمر. والله إن كان ليكون في المكان الذي إليه ينتهي سرورُ الرجل بأهله، بيني وبينه لحافٌ، فيخطر على قلبه الشيءُ من أمر الله، فينتفضُ كما ينتفضُ طائر وقعَ في الماء، ثم ينشجُ ثم يرتفعُ بكاؤه. حتى أقول: والله لتخرجنَّ نفسُه التي بين جنبيه، فأطرحُ اللحافَ عني وعنه، رحمةً له، وأنا أقولُ: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعدُ المشرقين، فو الله ما رأينا سروراً منذُ دخلنا فيها».

وعُني بلغاءُ العصر الأمويّ بوصف الوُلاة، فجاء وصفُهم مزداناً بالمدح حيناً، مشيناً بالقدح أحياناً. وطغيان القدح على المدح ناجم عن ظاهرة كانت فاشية، وهي أن الولاة في أكثر الأقاليم كانوا أشدّ على الرعية من الخلفاء،

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ١٢١.

فشهَّرَ الوصافون بمظالم من أساؤوا، ونوّهوا بمناقب من أحسنوا. فأصاب كل فريق من الفريقين ما يستحقُّ من العين الراصدة والألسن الناقدة.

من الذين ظفروا بالثناء والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. قال ابن عساكر[١]:

«لَمَّا ولي العباسُ بن الوليد حمصَ، قال ذاتَ يوم لأشراف حمص: يا أهلَ حمص، مالكم لا تذكرون أميراً من أمرائكم مثلَ ما تذكرون عبدَ الرحمن بنَ خالد بنِ الوليد؟

فقال عبدُ الرحمن بن خالد الحمصي: كان يُدني شريفَنا، ويغفرُ ذنبنا، ويجلسُ في أبنيتنا، ويمشي في أسواقنا، ويعودُ مَرْضانا، ويشيِّع جنائزنا، وينصفُ مظلومنا من ظالمنا، ويخير بين علمائنا».

وبعد موت الحجاج [سنة ٩٥هـ] وتولي سليمان الخلافة [سنة ٩٦هـ] قدم وجهاء العراق إلى دمشق لتهنئة سليمان بن عبد الملك. فأمرهم سليمان بشتم الحجاج[٢] «فقام بلالُ بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعريّ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَأُخْبرُك عن عدوِّ الله بعلم؟

قال: هات.

قال: كان عدوُّ الله يتزيَّن تَزَيُّنَ المومسة، ويصعد على المنبر، فيتكلَّمُ بكلامِ الأَخيار. وإذا نزل عمل عملَ الفراعنة. و[هو] أكذبُ في حديثه من الدَّجَّال».

وأجملُ الوصفِ ما قُرن فيه الموصوف بضدِّه، وانْتُقِل فيه من الجمال إلى القبح، فإذا أنت أمام صورتين تمثّل إحداهما المثالبَ في أشنع قَسَماتها، والأخرى المناقب في أبدع تجلّياتها، فتحارُ أيّهما أعمق تأثيراً فيك؟ أما يسوءك فتنفرُ منه، أم ما يسرُّك، فتتلقَّاه بالقبول؟

ومن هذا الضرب لوحٌ ذو وجهين، رسمَ عبدُ الله بنُ أبي سفيان بنِ الحارث بن عبد المطلب الهاشمي على وجهه الأول شخصيةَ عبد الله بن جعفر الهاشمي، وعلى وجهه الثاني شخصية عمرو بن العاص، فأطرى الأوَّل وأزرى بالثاني، فإذا نقلتك القراءةُ من وجه إلى وجه، تضاعفَ لديك جمالُ الأوَّلِ بقُبح

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ٢٤٥.
(٢) البيان والتبيين١/ ٣٩٧.

الثاني. وإذا خطر لك أن تلومَ الهاشميَّ لأنه سفَّه عمراً، فاعلم أن عمراً كان البادئ بتجريح ابن جعفر في مجلس معاوية، فلَمَّا سمع الردَّ أُسقط في يده، وألجمه الندمُ بالصمت والألم، وممَّا جاء في هذا الرّد[١]:

«كذبتَ يا عمرو، وأنت أهلُه، ليس هو كما وصفت، ولكنه لله ذَكورٌ، ولبلائه شكور، وعن الخَنَا[٢] زَجور[٣]. سيّد كريم، ماجدٌ[٤] صميم[٥]، جواد حليم، إن ابتدأ أصاب، وإن سُئل أجاب، غيرُ حصور ولا هيَّاب، ولا فاحش عيَّاب، كذلك قُضي في الكتاب. فهو كالليث الضرغام الجريء المقدام في الحسب القمقام[٦]...».

هذه ملامح الجمال والكمال في الوجه الأول، أمَّا ملامحُ القبح التي وُصِمَ بها عمرٌو فمنها:

«...فليت شعري، بأيِّ حسب تنزل للنضال، أم بأيّ قديم تعرض للرجال؟ أبنفسك فأنت الوغدُ الزَّنيمُ[٧] أم بمن تنتهي إليه من أهل السفه والطيش، والدناءة في قريش؟ لا بشرف في الجاهلية شُهِر، ولا بقديم في الإسلام ذكر، غير أنك تنطقُ بغير لسانك وتنهضُ بغير أركانك. وايمُ الله إنه كان لأسهلَ للوعث[٨] وأَلأَمَ[٩] للشَّعثِ[١٠] أن يَكْعَمَك[١١] معاويةُ عن ولوغِك بأعراض قريش كَعْمَ الضَّبُعِ في وجارها. فإنك لستَ لها بكفيٍّ، ولا لأعراضِها بوفيٍّ».

وقد تقع في فقرة واحدة من بضعةِ أسطر على صُوَرٍ صغيرة، تخطَّفَتْها عدسةُ مُصوِّر على عجل، من وجوه تحدَّرت من أسرة واحدة، ثم سلكها

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٢٣٩.
(٢) الفحش والسوء.
(٣) ناءٍ.
(٤) مفضال كثير الخير، شريف.
(٥) خالص النسب.
(٦) السيد الواسع الفضل الكثير الخير.
(٧) الذي يُعرف بالشر. أو الدعي الملصق بالقوم وليس منهم.
(٨) فساد الأمر واختلاطه.
(٩) أجمع وأصلح.
(١٠) ما تفرق واختل من الأمر.
(١١) يشدّ على فاك ما يمنعك.

مصوِّرُها في دفتر صور «أَلْبُوم» فإذا هي متشابهةُ القسمات متقاربةُ السمات، لأنها تمثل ذوي القربى. والسماتُ التي تشابه فيها آلُ المهلب وتقاربوا هي الشجاعةُ والقوةُ والنجدةُ والكرم. قال كعبٌ الأشقريُّ يصف بني المهلّب للحجّاج بن يوسف[١]:

«المغيرةُ فارسهم وسيِّدهم، نارٌ ذاكية، وصعدةٌ عالية، وكفى بيزيدَ فارساً شجاعاً، ليثُ غاب، وبحر جمٌّ[٢] العُباب[٣]. وجوادهم قبيصةُ ليثُ المغَار، وحامي الذّمار. ولا يستحي الشجاعُ أن يفرَّ من مُدْرك، فكيف لا يفرُّ من الموت الحاضر، والأسد الخادر؟ وعبد الملك سمٌّ ناقع، وسيف قاطع. وحبيبٌ الموتُ الزعاف، إنما هو طودٌ شامخ، وفخر باذخ. وأبو عيينةَ البطلُ الهمام، والسيفُ الحسام. وكفاك بالمفضل نجدةً، ليثٌ هدَّار، وبحرٌ موَّار. ومحمدٌ ليثُ غاب، وحُسامُ ضِراب.

قال الحجَّاج: فايُّهم أفضلُ؟

قال: هم كالحلقةِ المُفْرَغة، لا يُعْرَفُ طرفاها».

ولَمَّا كان المهالبةُ أسرةً محاربة، فإن الرسَّام حَرَص أشدَّ الحرص على أن يتخيَّر لهم ما يليقُ بهم من صفات، وما يليقُ بصفاتهم النفسية من نظائر مادّية تجسِّمها، ومنها النارُ المتضرِّمة، والرماح المشرعة، والأسود الضواري، والجبال الراسخة، والبحارُ الزاخرة، والسيوف الباترة، لكنَّه لم يبرأْ فيما اختار من بعض التكرار، وقد يكون تكرارُه ناجماً عن تشابه الموصوفين، لا عن عيِّ الواصف.

وقد تذهب في تعليل التكرار مذهباً آخر، فتقول: إن كعباً عظَّم قِيماً تواضع الناس على تعظيمها، وهو لا يستطيع أن يخالف عمَّا تواضع الناس على تعظيمه، فأدَّى التزامه المعاني إلى التزامه الصور، وقد تشفع مذهبك بما وصف به كثير عزَّة طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة الطلحات، فتقول: إن كُثيِّراً على موهبته الشعرية، صوَّر المناقب نفسها بالصور التقليدية نفسها، فجعل طلحة

(١) الأغاني ١٤/ ٢٨٥.
(٢) كثير.
(٣) الموج.

بحراً ملتطمَ الموج، كثيرَ الرفد، وسحاباً غزير الغَيْث، فيَّاض الكرم، وجملاً صعب الانقياد، وأسداً يُخيف الأعداء. فقال[١]:

«لقد كان بحراً زاخراً، وغيماً ماطراً، ولقد كان هطل السحاب، حلْوَ الخطاب، قريبَ الميعاد، صعب القياد. إن سُئل جاد، وإن جاد عاد، وإن حَبَا غَمَر، وإن ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإن فُوخر فَخَر، وإن صارع بَدَر[٢]، وإن جُنِيَ عليه غَفَر. سليط البيان، جريء الجنان، في الشرف القديم، والفرع الكريم، والحسب الصميم[٣]، يبذلُ عطاءَه، ويرفد جلساءَه، ويُرهبْ أعداءَه».

والسمةُ الجامعة التي تلتقي عندها صور الرجال من صور الخلفاء الأربعة التي رسمها عبد الله بن عباس بما رسم كعبٌ الأشقريُّ من آل المهلّب هي تغليبُ الخُلُق على الخَلْق، والجوهر على المَظْهر. وسببُ ذلك - كما يُخيَّل إلينا - أن الرجولة العربية لا تُقيم وزناً للشكل، ولا تكترثُ بالمحاسن والمقابح، ما لم يكن في الخَلْق حسنٌ باهر، أو قبحٌ ظاهر، فعندئذٍ يصفُ الواصف المحاسنَ أو المقابح، لكنه لا يكادُ يرسمُ ما استحسن أو ما استقبح، حتى يمحو كلَّ ما رسم بسمة واحدةً، وهي الفصاحةُ أو الحصرُ، والبيانُ أو العيُّ قال عبد الملك بن عمير[٤]:

«قدم علينا الأحنفُ بنُ قيس الكوفةَ مع مصعب بن الزبير، فما رأيتُ خصلة تُذَمُّ في رجل إلّا وقد رأيتُها فيه: كان صَعْلَ الرأس[٥]، أحْجَنَ الأنف[٦]، أغضفَ[٧] الأذن، متراكبَ الأسنان، أشدقَ[٨]، مائل الذَّقَنِ، ناتئَ الوجنة، باخق[٩] العين، خفيفَ العارضين، أحنَف الرجلين، ولكنَّه كان إذا تكلَّم جلَّى عن نفسه».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق١١/ ١٨٧.
(٢) سبق.
(٣) الخالص مما يشينه.
(٤) البيان والتبيين ١/ ٥٦.
(٥) دقيقه.
(٦) معوج.
(٧) مسترخٍ.
(٨) واسع الفم مائله.
(٩) البخق: انخساف العين، غورها بعد العور.

وربَّما نظر الواصفُ إلى الموصوف بأذنيه لا بعينيه، فلم يصوِّرْ شيئاً ممَّا يُبصر الناس فيه، بل وصف ما يسمعون، مجتزئاً بالمسموع عن المرئي. حتى إن القرآن الكريم نفسه جعل السمع وسيلة التعلُّم، وقدم السميع على العليم في أكثر من ثلاثين موضعاً، والسمع على البصر أو السميع على البصير فيما يقرب من عشرين موضعاً.

وعلةُ ذلك، كما يُخيل إلينا، أن اللسان ترجمانُ العقل، والعقل أهمُّ من الشكل، ولهذا فإن هشام بن عبد الملك حينما صوَّر زيدَ بن عليّ لم يرسم قسمةً واحدة من قسمات وجهه، ولا جارحة من جوارحه، بل جعل همَّه الأول أن ينقل حلاوة لسانه، وطلاوة بيانه، وقدرته على اجتذاب الأسماع والقلوب، فقال[١]: «رأيتُ رجلاً جدلاً[٢] لسِناً[٣]، خليقاً بتمويه[٤] الكلام وصوغه، واجترارِ الرجال بحلاوة لسانه، وبكثرة مخارجه في حُججه، وما يدْلي به عند لَدَد[٥] الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادَّة لنيل الفَلَجِ[٦]، فإنه إن أعاره القومُ أسماعهم فحشاها من لين لفظه، وحلاوة منطقه مع ما يُدلي به من القرابة برسول الله ﷺ وَجَدَهم مُيَّلاً إليه، غير متئدة قلوبهم، ولا ساكنة أحلامهم...».

كلُّ ما سبق ذكره من تغليب الخُلُق على الخَلْق، والعقل على الشكل يصدُق على وصف الرجال. فإذا جعل الواصف همَّه تصوير النساء قدم الجوارح على الطباع، والمحاسن على المناقب، وتلقَّى المرأة بعينيه، ولم يتلقَّها بعقله، وأرسل أهدابه في قسماتها، ولم يرسل عقله في فضائلها ما لم تكن الموصوفة من ذوات الشرف. فإن كانت حسيبة نسيبة كان لها من حسبها ونسبها عند الواصف شفيعٌ وممَّا فاتها من الحسن بدلٌ. وإن كانت جاريةً فجمالها الجسديّ - وربَّما كان ذلك أحبَّ إلى النساء كافة- مقدّمٌ في الوصف على كمالها

(١) تاريخ الطبري٨/ ٢٦٦.
(٢) شديد الجدل، والجدل المناظرة وقرع الحجة بالحجة.
(٣) ذا بيان وفصاحة.
(٤) تزيين.
(٥) شدة.
(٦) الظفر والفوز.

الروحي. حتى إن ريشة الرسَّام لا تغوص من قسمات الجسد إلى خلجات النفس، بل تكتفي بأن تداعب الثوب الشفيف، والبشرة البيضاء، والبَدَن اللدن، والخدَّ الأسيل، والعينَ الحوراء، والعنق الأغيد، والشعر المرسل.

رأى أبو زيد الأسدي جارية خارجة من أحد القصور الأموية، فوصفها لسليمان بن عبد الملك، فقال[١]:

«يا أمير المؤمنين، بينا أنا ذاتَ يوم قاعدٌ بباب سعيد بن عبد الملك، إذْ أنا بجارية قد خرجت من باب القصر، تريد رحبته، كالغزال الفالتِ من شبكة الصائدِ، وعليها ثوبٌ سكب[٢]إسكندراني، يُرى منه نورُ بدنها...

في رجلها نعلٌ، قد أشرق بياضُ قدمها على حُمْرة نعلها، تفردُ ذؤابة، تضربُ الحَقْوَ[٣]، ولها عينان مملوءتان سِحْراً، والغالبُ عليهما الفُتورُ. بينهما أنفٌ أقنى[٤]، كأنه قصبةُ دُرٍّ. فوقه حاجبان، قد قُوسا على محاجر عينيها، وصدغان، قد تعقربا نونينِ على صَحْن خدِّها. وَقَفا كالعناقيد على سلَّتها. شغلني عن صفة فمها ذهابُ عقلي. فقلت: أسماوية أم أرضية؟ أجنية أم إنسية؟».

وخلاصةُ القول في وصف الأشخاص أنه وافقَ طباع الجنسين: فوصف الرجالَ بكمال العقول، والنساءَ بجمال الجسوم.

٩- البشم والهرم

أصدقُ ما يصف به الإنسان نفسَه أن يصوِّرَ ما يعروه من مرض يُفضي به إلى الضعف، وهَرَمٍ يؤذن بالرحيل، واحتضار يُنذر بالموت؛ ففي هذه الحالات الثلاث ينسى الواصفُ والموصوف -وكلاهما واحد- كمالَ العقل وجمال الشكل، ويتجلَّى في الوصف الضعفُ أمام القوة، والعجزُ تلقاء القدرة، فتأتي المعاني مضمَّخةً بأعمق المشاعر الإنسانية الحقيقية.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ٣٣١.

(٢) ضرب من الثياب رقيق.

(٣) الخاصرة.

(٤) طويل مع دقة أرنبته وحدب وسطه.

يُخيَّل إلينا أن الأكول النهم، لأكله زادَه وزادَ غيره، يعاقَب بأمراض، تعجِّلُ رحيله عن الدنيا. فسليمان بن عبد الملك- والقولُ للسيوطي[١]- «أكل في مجلس واحد سبعين رمانة، وخروفاً، وستَّ دجاجات، ومكوك زبيب طائفي»، فمات وسِنُّهُ خمس وأربعون سنة [٥٤-٩٩هـ]. وأبو نخيلة الحماني-وكان يكثر من الأكل- أصيب يوماً بتخمة أسقمته، فوصف ما أكل وصفاً يتضوَّعُ نَهَماً وقَرَماً، على الرغم من السَّقمِ والبَشَمِ.

«سأله القعقاع بن ضرار: كيف أصبحتَ أبا نخيلة؟ فقال: أصبحتُ والله بشماً[٢]. أَمَرْتَ خبَّازَك، فأتاني بهذا الرقاق الذي كأنه الثيابُ المبلولة، قد غمسه في الشحم غمساً، وأتبعه بزُبْد كرأس النعجة الخُرسيّة[٣]، وتمر كأنه عنزٌ رابضة، إذا أخذتُ التمرة من موضعها تبعها من الرُّبِّ كالسُّلوك الممدودة، فأمعنتُ في ذلك»[٤].

والهرمُ أشقُّ على الشيخ من المرض، لأن الهرم عجزٌ دائمٌ، والمرض ضعفٌ عارض. والثابتُ أثقلُ من المتحوِّل، وأفدحُ من الطارئ. وإذا كان السَّقمُ حالاً قد تحول، وداءً يُرْجى منه البرءُ، فإن الهرمَ حُطامُ الأعوام الخوالي، وركامُ الأسقام المتعاقبة، وكلاهما لا يُبْرئه طبٌّ، ولا يعمل فيه دواء.

سأل معاويةُ بن أبي سفيان عبيدَ بن شريَّة- وقيل ابن سرية وكان من المعمَّرين- أن يصفَ شأنه بعدما أدركه الهرمُ، فقال[٥]: «أمَّا قيامي، فإن قمتُ فالسماء تبعدُ، وإن قعدتُ فالأرضُ تقرب. وأمَّا أكلي وشربي، فإني إنْ جعتُ كَلِبْتُ، وإن شربت بهرت[٦]. وأمَّا نومي، فإن حضرت مجلساً حالفني، وإن خَلَوْتُ أطلبُه فارقني».

ومن المعمَّرين الذين صوَّروا شيخوختهم، فأنصفوا فيما وَصَفوا، وصَدَقوا فيما نقلوا من الملامح الظاهرة، والمشاعر الخفيَّة عمرُو بن مسعود السُّلميُّ.

---

(١) تاريخ الخلفاء/ ٢١٠.
(٢) تخم.
(٣) خراسانية.
(٤) الأغاني ٢٠/ ٤١٣.
(٥) مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٣٧.
(٦) تتابع نفسي وضاق صدري.

سأله معاويةُ عمَّا يكابدُ، فرسم هَرَمه في لوح مُتْقن الخطوط والظلال، واضح الألوان، يترصَّدُ أجزاءَ الجسم المتداعي، ويتصيَّد حركاته المرتجفة، ويستخرجُ ما يعرو الجسدَ من وهن، وما يتخلَّج في النفس من سأم، ثم يلقي ذلك كلَّه على لوْح من أجمل الألواح المعبِّرة عن مأساة الإنسان في أرذل العمر.

قال عمرُو بن مسعود[١]، وقد سأله معاويةُ بن أبي سفيان عن حاله بعد ما أسنَّ: «ما تسألُ، يا أمير المؤمنين، عمّن ذبلْت بشرته[٢]، وقطعتْ ثمرته[٣]، فابيضَّ الشعرُ، وانحنى الظهر، فقد كثر مني ما كنتُ أحبُّ أن يقلَّ[٤]، وصعُب مني ما كنت أحبُّ أن يذلّ[٥]. فَأَجمتُ[٦] النساء، وكنَّ الشفاء، وكرهت المَطْعَم وكان المَنْعَم، وقصر خطوي، وكثر سهوي، فسُحِلتْ مريرتي[٧] بالنقض، وثقلتُ على وجه الأرض، وقربَ بعضي من بعض، وزلَّ وكلَّ، فقلَّ انحياشُه[٨]، وكثر ارتعاشُه، وقلَّ معاشه. فنومُه سُبات[٩]، وفهمه تارات، وليلُه هُبات[١٠]».

ومن الذين بلغوا أرذل العمر، ونفوسهم متعلقة بالدنيا عمرو بن العاص، ذكر الإمام الذهبي: «أنه مات سنة ٤٣هـ وله نحو من مئة سنة، وأنه خلف أموالاً كثيرة وعبيداً وعقاراً. يقال: خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهباً».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ٢٩٧.
(٢) ذهبت نضرتها.
(٣) انقطع نسله.
(٤) آفات الكبر.
(٥) ما يعرض للكبار من خشونة المفاصل.
(٦) كرهت ومللت.
(٧) جعله مثلاً لانحلال بدنه وانتقاص قواه، فالمريرة: الحبل المفتول، والسحيل: أن يفتل الغَزْل طاقة واحدة.
(٨) نهوضه للأمور وإنجازها.
(٩) غشية خفيفة وهي نوم المريض والمسن.
(١٠) لين واسترخاء كأنه يريد أن نومه إنما هو بقدر أن تسترخي أعضاؤه من غير أن يستغرق في النوم.

وأعجبُ ما أُثِر عنه محاولته أن يصف ما لا يوصف، وأن يصوِّر ما لا يُبْصَرُ، لأن جوهره غَيْبِيٌّ مجهول، وأثره من عالم الشهادة، وهو الموت. قال الذهبي[1]:

«قال عمرو بن العاص: عجباً لمن نزل به الموتُ، وعقلُه معه، كيف لا يصفُه؟

فلَمَّا نزل به الموتُ ذكَّره ابنُه بقوله، وقال: صِفْه.

قال: يا بني، الموتُ أجلُّ من أن يوصف، ولكني سأصف لك: أجدني كأن جبلَ رَضْوَى على عُنُقي، وكأنَّ في جوفي الشوكَ، وأجدني كأن نَفَسي يخرج من إبرة».

وتستطيعُ أن تعلّل هذه المحاولة المخفقة بعلتين:

أُولاهما أنه كان من أذكى العرب عقلاً، وأفصحهم لساناً، حتى إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال: «خالقُ هذا وخالقُ عمرو بن العاص واحد!». فكأنَّ عقله الطُّلعةَ أركبه هذا المركبَ الصعب.

والثانيةُ أن عمْراً كان يخشى ما بعد الموت من حساب، ولهذا ظلَّ يردد وهو يُحْتَضر: «اللهم أَمَرْتَنا فتركْنا، ونهيْتَنا فركبنا، ولايَسَعنا إلَّا مغفرتُك. فكانت تلك هِجِّيراهُ حتى مات».

د- سمات الوصف

لَمَّا كان الوصف غرضاً فنيّاً، يتمرَّس أربابُه بالخطوط والظلال والألوان فوق تمرُّسهم بالأفكار والأدلة والدوافع، فإن المضمون العقلي النفسي في هذا الغرض يبقى دون ما يُناظره في الأغراض الأخرى، لكن هذا الحكم ليس قياساً يُتَّبع، ولا قاعدة تطَّرد؛ فقد تجد موصوفات أوحت إلى واصفيها أفكاراً عميقة، ومشاعر مؤثرة، مع ما يتجلَّى في وصفها من جمال التصوير، ورشاقة التعبير.

وتوخياً للدقة والإنصاف يمكننا أن نقول: كلَّما اقترب الموصوف من الحياة الإنسانية كان مضمونه الفكري أقرب إلى العمق. وكلما اقترب الموصوف

(١) سير أعلام النبلاء٣/ ٧٥.

من الطبيعة الجامدة بهت المضمون، وسطع الشكل، فكانت الغلبة للخطوط والألوان على المعاني والعواطف، فما أبرزُ السمات التي يتسم بها مضمونُ الوصف وشكله؟

١- ضعف التأثر بالمعاني الإسلامية

لم يضعفْ تأثيرُ الإسلام في غرضٍ من أغراض النثر كما ضَعُفَ في الوصف، ولاسيَّما ما وُصفت به الطبيعةُ. ولولا وصفُ الأشخاص الذي سلكناه في الوصفِ على سبيل التوسُّع لا الدقة لم يكن للفكر الإسلامي في هذا الغرض إلا صوت خافت، وضوء باهت.

وصف الحسن البصري للأمويين من سبقهم من الأمراء، فقال[١]:

«لقد أدركتُ الأمراءَ ممَّن كان قبلكم: كانوا، والله، وُعاةً لكتابِ الله وسنةِ نبيهم ﷺ. إذا جنهم الليل فقيامٌ على أطرافهم، يفرشون وجوههم، تجري دموعُهم على خدودهم، يناجون الذي خلقهم في فكاك رقابهم. إذا عملوا الحسنةَ دأبوا في سترها، وسألوا الله أن يتقبَّلَها. وإذا عملوا السيئةَ تابوا، وسألوا الله أن يغفرها لهم. فوالله ما زالوا كذلك، وعلى ذلك. والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلَّا بالمغفرة».

٢- مزج الوصف بالتأمُّل

إن ارتباطَ معاني الوصف بشخصية الواصف يصبغُ بعضَ الصفات بصبغةٍ إنسانية عامَّة، ويُلقي على النصّ ظلالاً من التأمُّل، ويرقى به من سطحية الحياة الواقعية المعيشة، إلى النظرة الواعظة المتَّعظة بما يجري حول الواصف، ويحملُه على التفكُّر في أسرار الحياة والموت.

والمعمَّرون- ومنهم عبيدُ بن شريّة أو سريّة الذي زعموا أنه عاش مئتين وعشرين سنة- أبرعُ من الشباب في الغَوْص على هذه الأسرار. روى ابنُ عساكر[٢] أنَّ معاوية بن أبي سفيان طلب من هذا الشيخ الجرهميّ أن يصفَ له ما شاهدَ في حياتِه المديدة لعلَّه يعتبر بما يسمع.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٦/١٤٨.

(٢) المصدر نفسه ١٦/٣٦.

«قال معاوية: كيفَ رأيت الدنيا؟

فقال: يومٌ كيوم، وليلةٌ كليلة، سنيَّاتُ بلاء، وسنيَّاتُ رخاء، وميِّت ومولود.[مفقود] مُهَنَّأٌ بمولود، ومولود معزًّى بمفقود. ولولا كثرةُ مَنْ يولَدُ ما بقي على الأرض أحدٌ، ولولا كثرةُ من يموت ما وسع الناسَ بلدٌ».

٣- الاصطباغ بصبغة الحضارة

إذا كان الجاحظ قد نعتَ دولة بني مروان بأنها عربيةٌ أعرابية، فكلامه لا يعني أن الأمويين زهدوا في متارف الحضارة؛ فمعاوية نفسُه منذ تولَّى بلادَ الشام في خلافة الفاروق قَبَسَ من حضارة الروم أقباساً أسخطتْ عليه عمرَ بن الخطاب، فأنَّبه، ولم يقبل عذره.

وبعد معاوية مال يزيدُ إلى الترف، ثم بالغ الوليد بن عبد الملك في تفخيم البنيان، وجمع أخوه سليمانُ جمالَ الحضارة إلى نضارةِ الطبيعة في مجلسٍ أوفى على الغاية في الفخامة، وفخامته أنطقت أبا زيد الأسدي بوصفِه، فجاء وصفُه لوحاً عريضاً كالألواح المتحدِّرة إلينا من القصور الإيطالية في عصر النهضة. روى ابنُ عبد ربه الخبر بلسان أبي زيد الأسدي فقال[1]:

«دخلتُ على سليمان بن عبد الملك[قبل استخلافه]، وهو جالس على دكان مبلّط بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأخضر، في وسط بستان ملتف، قد أثمر وأينع. وإذا بإزاءِ كلّ شق من البستان ميدان بنبت الربيع قد أَزْهَر، وعلى رأسه وصائف، كلُّ واحدة منهن أحسنُ من صاحبتها. وقد غابت الشمسُ فنضَّرت الخضرة، وأضعفتْ في حسنها الزهرة، وغنَّت الأطيارُ فتجاوبت، وهَبَّت الرياحُ على الأشجار فتمايلتْ، بين أنهار فيه قد شُقِّقَتْ، ومياه قد تدفّقَتْ».

٤- الرسم الملوّن

وفَّى فنُّ الوصف الموصوفاتِ حقَّها من الرسم الملوَّن، سواء أكانت من مشاهد الطبيعة الحسّية أم من المعاني المجردة. أمَّا المشاهدُ المحسوسة فألوانُها معها، تستمدُّها من الطبيعة الزاخرة بسواد الكحل وصُفرة الزهر، وخُضرة

(١) العقد الفريد ٦/ ٦٦.

النبات، وبألوانٍ لا حصر لها، قال الحجَّاج[١] لبعض وُلاته حينما ولَّاه أصفهان:

«قد ولَّيتك بلدةً حَجَرُها الكحلُ، وذبابُها النحلُ، وحشيشُها الزعفران». وربَّما مَزَج الرسَّامُ ألوانَ الطبيعة بألوانٍ مصنوعة، فأضاف صُفرة الثياب وخضرتها إلى سواد الشعر، وبياض البشرة. قال عصمة بن مالك في صفة ميّ التي أحبَّها ذو الرمة[٢]:

«جاريةٌ أملود[٣]، واردةُ[٤] الشعر، صفراءُ، فيها عَسْنٌ[٥]، وعليها سَبٌّ أصفرُ[٦]، وطاقٌ[٧] أخضرُ».

وأمَّا إذا كان الموصوفُ معنى مجرَّداً فحينئذٍ يضطر الواصفُ إلى تجسيم هذا المعنى وتلوينه بألوان تقرِّبه من بصر القارئ، وصفَ سديفُ بنُ ميمون ما آلت إليه الأمور الإدارية من فساد، فجعل الباطل زرعاً قد نبتَ وطالَ، ورعاه الأمويّون حتى أمرع وأينع، ودنا وقت حصاده، ثم دعا الله أن يجعلَ الحق حاصداً يجتاح الفساد بمنجله القاطع اللامع، ووجهه المنير الساطع، لكي يكشفَ ظلامَ الضلال، وينشر ضياءَ الهدى، فقال[٨]:

«قد استحصد زرعُ الباطل، وبلغ نهيته، واجتمع طريدُه. اللهم، فأَتحْ له يداً من الحقِّ حاصدة، تبدِّد شملَه، وتفرِّق أمره، ليظهر الحقُّ في أحسن صُوَرِه، وأتمِّ نوره».

٥- تحريك المشاهد المرسومة

لم يكتفِ الوصّافون المبدعون برسم المشاهد وتلوينها، بل أضافوا إلى لوحاتهم المتقنة الخطوط والظلال عنصراً فنيّاً هامّاً، قد تعيا به ريشةُ الرسام

(١) معجم البلدان١/ ٢٠٨.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٣١.
(٣) ناعمة.
(٤) مسترسل طويل.
(٥) طول مع حسن الشعر والبياض.
(٦) ثوب رقيق أو خمار.
(٧) كساء.
(٨) مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٢١٢.

وألوانه، وتبرع في إنجازه كلماتُ الأديب وبيانه، وهو بثُّ الحياة في جنبات المشاهد المرسومة، حتى تغدو كلُّ عبارة من عبارات النصّ كأنها مرحلةٌ من حكاية، أو فصل من رواية، إذْ تتعاقب الأحداثُ أمام عينيك تعاقباً حيّاً، تبطئ حيناً، وتسرع أحياناً، وطيَّ كل حدث مصوَّر ملون ما يناسبه من حركات، فالسحابُ يبطئ، والرياح تجتاح، والبرق يخطف الأبصار، وأنت تراقب المشهد كأنك جزء منه، تجوسُ خلاله، ولا تنظر إليه من بعيد.

«سأل هشام بن عبد الملك خالدَ بن صفوان: كيف كان سيرُك؟

فقال: قتل أرضاً عالمها، وقتلتْ أرضٌ جاهلَها:

بينا أنا أسيرُ ذات ليلة، إذْ عصفت ريحٌ شديد ظلماؤُها، أطبق سماؤها، وطبق سحابها، وتعلَّق ربابها[١]. فبقيتُ محرنجماً[٢] كالأشقر، إن تقدم نُحر، وإن تأخرَّ عُقِر، لا أسمعُ لواطئٍ همساً، ولا لنابح جرساً. تدلّت عليَّ غيومُها، وتوارت عني نجومُها، فلا أهتدي بنجم طالع، ولا بعَلَم لامع. أقطع مَحجَّة، وأهبط لجَّة، في ديمومة قَفر، بعيدة القعر، فالريحُ تَخْطَفني، و الشوك يخبطني، في ريح عاصف، وبرق خاطف. قد أوحشني إكامُها[٣]، وقطعني سِلامُها[٤]. فبينا أنا كذلك قد ضاقت عليَّ معارجي[٥]، وسُدَّت مخارجي، إذْ بدا نجمٌ لائح، وبياضٌ واضح، وعرجت إلى آكام مُحْزئلَّة[٦]، فإذا أنا بمصانعكم[٧] هذه. فقرَّت العينُ، وانكشف الرَّيْنُ[٨]»[٩].

٦- بين الطبع والصنعة

كلُّ ما قيل عن تأثُّر النثر الفنِّي في العصر الأمويّ بالأساليب الأجنبية يُحْمَل على مَحْمَل التخمين، والرأيُ الراجحُ عندنا أن النثر الأمويّ تطوَّر من الطبع إلى الصنعة تطوُّراً ذاتيّاً، لا علاقة له بأدب الفرس، ولا بفلسفة اليونان، وأن طبيعة الموضوع كانت تفرض الأسلوبَ؛ فإذا وصف عبدُ الله بن عباس

(١) سحابها المتراكب.
(٢) أريد أمراً وأحجم عنه.
(٣) مرتفعاتها.
(٤) حجارتها.
(٥) مراقيّ ومصاعدي.
(٦) مرتفعة مجتمعة.
(٧) الآبار المصنوعة والأبنية.
(٨) ما كنت فيه من وحشة وضياع.
(٩) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس/ ٢٠.

الراشدين الأربعة غلب على أسلوبه الاسترسالُ والتدفُّق، وما ورد فيه من سجع وازدواج لا يناقض الطبعَ، وإنما هو حلية لفظية عربية أصيلة سبق إليها القرآنُ الكريم في قصار الآيات.

وإذا وصف عمرو بنَ العاص، فخيِّل إليك أنه فارق الطبعَ إلى الصنعة، فاعلم أن ما حلّى به كلامه من سجع ومطابقة ومقابلة لم يكن زينةً ملصقة بالمعاني، وإنما كان وسيلة من وسائل التعبير عن المعاني، لأن الواصفَ كان يحلِّل داهيةً من دُهاة العرب، تنطوي شخصيتُه المركَّبة على نقائضَ وأضداد أكثر ممّا تنطوي على نظائر وأشباه. ولو حلَّل شخصية عمر بن عبد العزيز الواضحة الشفيفة لما احتاج إلى هذه الصنعة. قال ابن خلكان[١]:

«حكى المدائنيُّ قال: قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أمية، وذكر مشاهده بصفّين، واجتمعت قريش، فأقبل عبدُ الله بن عباس على عمرو، فقال: .... ذكرت مشاهدك بصفين، فوالله ما ثقلتْ علينا وطأتُك، ولقد كُشِفت فيها عورتُك. وإن كنت لطويلَ اللسان، قصير السنان، آخرَ الخيل إذا أقبلتْ، وأوَّلَها إذا أدبرتْ. لك يدان: يدٌ لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضُها عن شرّ. ووجهان: وجهٌ موحش، ووجه مؤيس. ولعمري إنَّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ أن يطول ندمُه. لك لسان، وفيك خَطَل، ولك رأيٌ، وفيك نكد، ولك قدرٌ، وفيك حسد. فأصغرُ عيب فيك أكبرُ عيبٍ فيّ».

فأنت لا تجدُ فيما قال ابنُ عباس صنعة ثقيلة، بل تجدُ معادلاتٍ رياضيةً قُدَّتْ ألفاظها على قُدود المعاني. أمَّا حينما يتكلَّف دغفلٌ النسَّابةُ إطراءَ بعض القبائل ببعض الفضائل التي تصدق عليها وعلى غيرها، فثمَّ الصنعةُ، كقوله[٢]:

«..يحملون المغارمَ[٣] والأثقال. ويجندلون الكُماةَ والأبطال. لهم العزُّ والجَلَدُ[٤]، والسياسة والعدد. شموسُ البلاد، وأقمارُ العباد، ونجومٌ في الناد.

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٦٣.
(٢) البصائر والذخائر ٤/ ١٦٥.
(٣) الديون والحمالات، أي يؤدونها عن الناس.
(٤) القوة والشدة والصبر.

لهم في القلوب حلاوة، وعلى الوجوه طلاوة[١]. أسد العرب، إذا جَثَوْا على الرُّكب».

٧- إغراب الأعراب

من سمات الوصف وضوحُ اللغة، ومجانبةُ الحوشي، غير أن الأعراب الوافدين من البادية إلى الحاضرة كانوا يُغْربون فيما يصفون. ذكر ثعلب[٢] أن الحجَّاج - وهو مَنْ هو في الإحاطة باللغة- «لقي أعراباً، قد انحدروا للميرة[٣]، فقال: كيف تركتم السماء؟

فقال قائلهم: أصابتْنا سماءٌ بالمِثْلِ[٤]مِثْلِ القوائم[٥]، حيث انقطع الرّمثُ[٦]، بضرب[٧]فيه تفتيرٌ[٨]، وهو على ذلك يُعَضِّدُ[٩] ويُرَسِّغ[١٠]. ثم أصابتنا سماء أُمَيْثِلُ[١١] منها، تُسيل الدِّماثَ[١٢] والتَّلْعةَ الزهيدة[١٣]. فلَمَّا كنا حذاءَ الحَفَرِ[١٤] أصابنا ضِرْسٌ[١٥]جَوْدٌ، مَلأَ الإخاذَ[١٦].

فأقبلَ الحجاج على زياد بن عمر العتكي، فقال: ما يقول هذا الأعرابي!؟».

---

(١) حسن وبهجة.
(٢) مجالس ثعلب١/ ٢٨٦.
(٣) جلب الطعام.
(٤) موضع بنجد.
(٥) جبال لهذيل.
(٦) نبات سهلي أي حيث أفضت السهولة إلى الحزونة.
(٧) مطر دائم.
(٨) سكون.
(٩) بلغ ثراه العضد.
(١٠) يبلغ ماؤه الرسغ لمن حاول أن يسبر غوره.
(١١) أحسن منها بقليل.
(١٢) السهلة من الأرض.
(١٣) القليلة الأخذ للماء.
(١٤) ركية معروفة على طريق البصرة إلى مكة.
(١٥) المطر ها هنا وها هنا.
(١٦) الحُفَر على هيئة الحوض.